البيان

مجلة أدبية شهرية
تصدر عن رابطة الأدباء الكويتيين منذ عام 1966

العدد 649 أغسطس 2024

منحوتة الفنّان الكويتي الراحل عيسى صقر «رحمه الله»

في ذكرى رحيل الأديب النهضوي أحمد السقاف

(10-4)

الكويت تودّع شاعرها يعقوب السبيعي

(14-11)

أسامة العيسة: المكان جزء من مشروعي الروائي.. بناسه وأساطيره

(17-15)

البيان

العدد 649
مجلة أدبية شهرية
تصدر عن رابطة الأدباء الكويتيين

صدر العدد الأول في أبريل 1966

رئيس التحرير:
حميدي حمود المطيري

سكرتير التحرير:
أفراح فهد الهندال

موقع رابطة الأدباء على الانترنت:
www.alrabeta.org

ثمن العدد:
دينار كويتي أو ما يعادله
من العملات الأخرى

المراسلات:
رئيس تحرير مجلة البيان
ص.ب: 34034 العديلية
الرمز البريدي 73251
هاتف المجلة: 0096522518286
هاتف الرابطة:
22518282/ 22510602

البريد الإلكتروني:
Albayankw@hotmail.com

• المواد المنشورة تعبر عن رأي كتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

• تُقدّم إسهامات الكتّاب باسم رئيس التحرير مع السيرة الذاتية للكاتب المرفقة بمستند رسمي يثبت صحتها بوسيط تخزين USB أو تُرسل إلى البريد الإلكتروني للمجلة.

• للمجلة الحق في نشر أو عدم نشر المواد الواردة إليها من دون ذكر الأسباب.

المحتويات

كلمة البيان

أزمات الأوطان والإبداع الثقافي 3

ملف: في ذكرى رحيل الأديب النهضويّ أحمد السقاف

• فارعة السقّاف: عاش للأحلام الكبيرة ولم يشغله الوطن عن أمّته 7
• السقاف ناهضاً من جديد في براكين غضب «طوفان الأقصى» 4-6
• شهادات شعراء وأدباء شاعر «المهمّات الثقافية» - إعداد: محمد صالح الجرادي 8-10

مسبار

• غياب يأبى الرحيل 11
في وداع يعقوب السبيعي - متعب بن ظمنة
• أشهر معارضة شعرية في تاريخ الأدب الكويتي – ندى السيد الرفاعي 12-13
• الشاعر المحبوب - رجا القحطاني 14

حوار

• أسامة العيسة: المكان جزء من مشروعي الروائي - ممدوح عبدالستار 15-17
• سوسن الأبطح: صمدت في «الصحافة الثقافية» رغم الغوايات - هديل عطا الله 18-20

نقد

• منى الشافعي و«المدينة التي كانت بالأمس» - نذير جعفر 21-22
• التكثيف اللغوي وتوتّر الحدث في «إضاءات العتمة الأخيرة» - حسام القاضي 23
• بلاغة السرد أم سحر الصورة في «ذات يوم» - سوزان خواتمي 24-25

رؤى

• ماراثون الشعر العربي في مسيرة نزار قباني (2) - نزار العاني 26-27
• ثقافة الإصلاح في قصص الأطفال - بتول أحمد خميس 28
• الموسيقى والغناء في الكويت - حجاج سلامة 30-31

دراسة

صورة الديك في تراثنا العربي الإسلامي والشعبي - د. عبدالمنعم مجاور 32-33

ترجمة

حوار مع الكاتب البرتغالي ديفيد ماتشادو - ترجمة: رفقة أحمد 34-35

إبداع

قصيدة «شهداء المجد» للشاعر الكويتي يعقوب الرشيد 36

ضوء الذاكرة

«أستطيع أن أقول إن التجربة التي أضافتها الكويت في ميدان الثقافة تُعد تجربة ذات سمات فريدة تثبت بوضوح قاطع قدرة الثقافة على تجاوز الحواجز الأيديولوجية، والسير في طريقها المستقل... ارتكزت تجربة الكويت على التدخل النشط للدولة في قطاع الثقافة، وكانت ثمار هذا التدخل إيجابية إلى حد بعيد، ولم يكن ذلك من أجل فرض وجهات نظر معيّنة، إذ ينعكس على هذا الإنتاج معظم ألوان الطيف الثقافي».

د. فؤاد زكريا

الثقافة في الكويت هي جزء من تيار كامل ومتدفق، هو الثقافة العربية، وهي رافد من روافدها، لكنه الرافد الأكثر جريانًا والأرحب ضفافًا، تماثله الحركة الثقافية في بيروت والقاهرة ودمشق، وهو مع العديد من روافد الثقافة العربية يصب في هذا النهر المتدفق، ولعل النشاط الثقافي في الكويت قبل الاحتلال العراقي غيره من حيث المضمون والأهداف بعد التحرير. لقد كانت الثقافة في الغالب قبل ذاك الفاصل الحزين في تاريخ أمتنا العربية منفعلة، فأصبحت فاعلة، وكانت تتعامل مع شعارات جاهزة يميل قطاعٌ منها إلى اليسار الثقافي وقطاع آخر إلى اليمين الثقافي، وأصبحت بعد ذاك التاريخ - كجزء من الثقافة العربية الجديدة - تطرح الأسئلة ولا تكتفي بالمسلّمات، تستخدم العقل وتتجنب العاطفة، معترفة بقدرة الإنسان العربي على الإضافة واستخدام العقل للتمييز بين الخبيث والطيب.

د. محمد الرميحي

في عالم عربي يتخبط بجراحاته وانقساماته وتناقضاته، لا بُد للكلمة أن تؤدي دورها في إضاءة الطريق وإخراج المواطن العربي من هذا النفق المظلم.

وإذا كانت مهمة الأدب تغيير العالم وتغيير الإنسان، فإن موقع الأديب هو الخطوط الأولى في المعركة، ومكانه في خط المواجهة المباشر مع العالم.

د. سعاد الصباح

المثقف العربي مهموم الآن بالنزاعات الإقليمية والأزمات الاقتصادية وثقافة التغريب والعولمة، في حين أن الثقافة تحتاج إلى جدار صلب ودعم حتى يستعيد المواطن العربي ثقته بثقافته.

ومع انتشار المد القومي في مصر وسورية، وتأثر بقية الدول في العالم العربي، أصبحت ثقافتنا وتعليمنا واحداً وجمع الوطن العربي ثوابت أهمها كرهنا للعدو الصهيوني، فأصبح عندنا مشروع مشترك ثقافي عربي، بعد ذلك تجاوزت البعثات الخارجية العالم العربي واتجهت لأوروبا وأميركا، مما خلق موجات من الحداثة والتجديد بجانب الأصالة الثقافية.

وأصبح المثقف العربي أمام خيارين؛ خيار الاغتراب الثقافي، وخيار الأصالة، والمثقف الفطن هو الذي يأخذ خير الثقافة العربية وخير الثقافة الغربية، فلا يتصدى كرها للثقافة الغربية، ولا ينزع عنه ثوب الثقافة العربية؛ بل يأخذ من الاثنين خيرهما.

د. عيسى الأنصاري

أزمات الأوطان والإبداع الثقافي

لربع قرن وعقد من الزمان؛ تتجدّد ذكرى غزو النظام العراقي الغاشم بأحداثها وذكرياتها وآلامها التي لا تزال ترسم حدود العلاقات وتتشكل في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية، وقد تزامن مطلع ذكراها من الشهر الجاري بقضايا عربية كبرى لم تتأثر مواقف الكويت تجاهها لضميرها الحي وفاءً لمبادئها ومنطلقاتها الإنسانية الأسمى، كقضية فلسطين التي طفت على سطح الأحداث بشكل غير مسبوق في الآونة الأخيرة، واتخذت شكلاً بائساً من العدوان والتخريب والإبادات الجماعية، فظلت الكويت توليها صدارة اهتماماتها، كما بدأت منذ أكثر من قرن، حتى تميزت على المستوى العالمي بإخلاصها ودعمها ورفضها المهادنة لأي شكل من أشكال التعاون على المستويين الرسمي والشعبي قلباً وقالباً، رغم ما أحدثته صدمة الاحتلال وتحالفاته المتخاذلة آنذاك.

وفي هذا العدد من «البيان» صفحات مخصصة لتناول القضية كما عهد القرّاء، من خلال نصوص أدبية والحوار مع الكاتب الصحافي والروائي الفلسطيني أسامة العيسة، والأستاذة الأكاديمية الكاتبة الفلسطينية سوسن الأبطح، الحاصلين على جوائز ثقافية تكريماً لجهودهما.

وجاءت الذكرى ترافقها خسارات أدبية كرحيل الشاعر يعقوب السبيعي، يرحمه الله، الذي ترجّل عن صهوة جواد الشعر والفكر والعطاء الثقافي لوطنه ومبادئه القومية والإنسانية، وقد عاصر أهم الأحداث التي ألمّت بالكويت، فكتب عنها حباً وشغفاً وإخلاصاً قصائد هتف بها الشعب وتغنّى بها لما تمثّله في وجدانه العميق، وحظيت «البيان» في هذا العدد بكتابات تؤبّنه وتستذكر مسيرته وملامح تجربته الأدبية.

كما تمرّ ذكرى رحيل الشاعر الكويتي أحمد السقاف، يرحمه الله، الذي غادرنا في شهر أغسطس 2010، وهو أحد روّاد النهضة الفكرية بالكويت، وخصصت «البيان» ملفاً حول جوانب من مسيرته الثقافية، تضمّن تجربته وشهادات من كتّاب وأدباء، وحواراً مع ابنته الكاتبة والناشطة الثقافية والاجتماعية، فارعة السقاف، لتحدثنا عن حياته الخاصة وتفاصيل لا يعرفها إلّا المقربون منه.

وبهذه الموضوعات والمضامين نستحضر ما يعنيه الموقف الإنساني من النكبات والأزمات، فللمؤرخين توثيقاتهم وأبحاثهم، وللسياسيين تحليلاتهم ودراساتهم، وللأدباء والكتّاب رؤاهم التي تتشكل ديواناً وميثاقاً يجمع الإبداع الإنساني وانبثاقاته وتمثّلاته الأدبية بنظرياتهم وآرائهم، فيستنير بها القارئ وتتشكل بها ذائقة المتلقي وفهمه وقراءته لكل ما جرى، وربما لا يدرك المولود القادم ما حدث في مكان وزمن ما حتى يتلمّس تلك المنحوتات في ذاكرة الأدب والتاريخ، وقد لا يدرك ملحميتها وكونها نكبة كبرى تجب مراجعتها حتى يُرى المشهد كاملاً من خلالها.

وإذا كان من سمة تجمع ذلك الموروث والإنتاج الضخم، فهو «الأثر الثقافي»؛ الذي يستعيد به الإنسان إنسانيته المتشظية إثر الحروب والخيبات والسقوط المرير والتشويه المتعمد للمبادئ العليا التي يرى فيها العالم الخلاص إثر صراعات الثقافات وتغلغل «أنظمة التفاهة» وسطوة الأطماع الخارجية والجشع الظالم ونزعة التفوق والانتخاب التي تحرّك القوى والأنظمة التدميرية، والتي تستهدف الإنسان والأوطان وقواها الناعمة وتاريخها وثقافتها ومبادئها السامية، ليبذر ذلك الأثر النبيل تحت خرائبها ما ينبت للعالم الجديد من آمال وأحلام وممكنات لإنسان واعٍ ومدرك لواجباته ومسؤولياته ومستقبل أفضل.

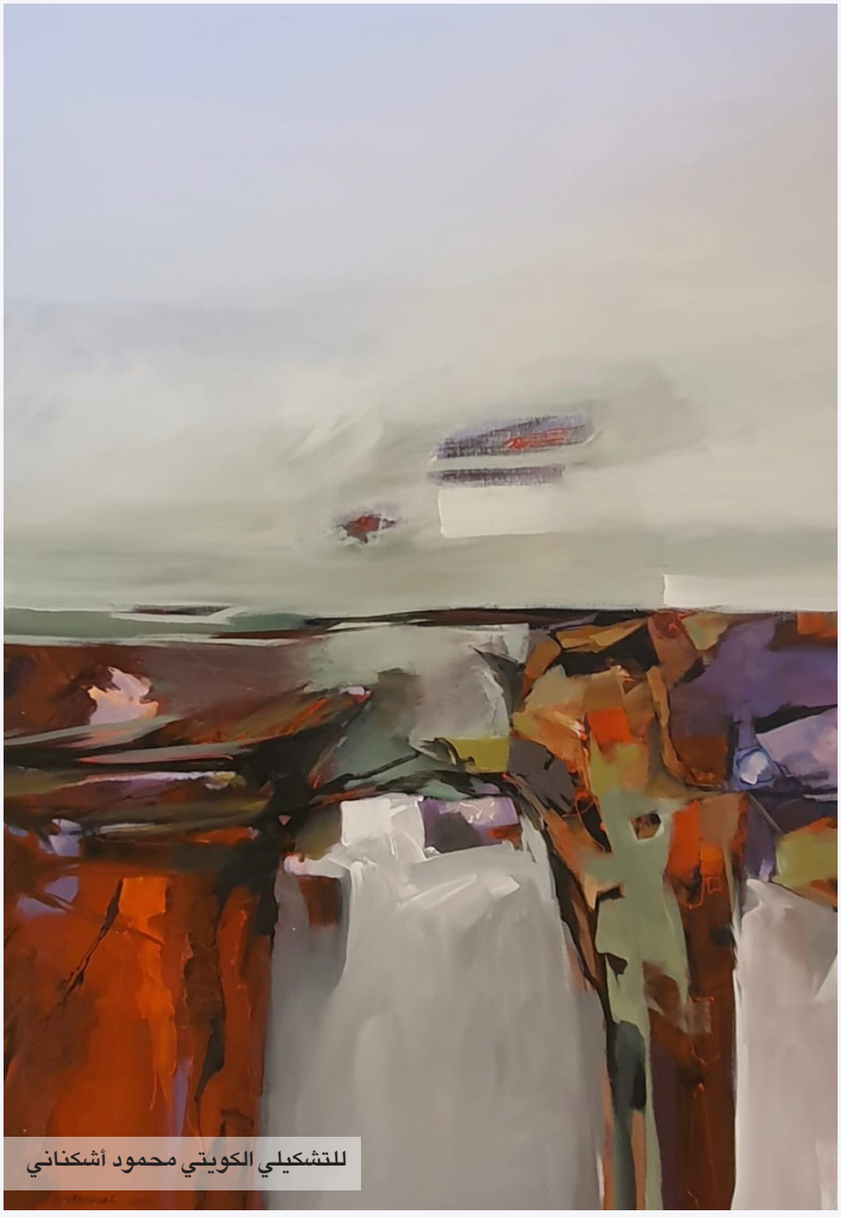

للتشكيلي الكويتي محمود أشكناني

فارعة السقاف.. عن والدها في ذكرى رحيله:

عاش للأحلام الكبيرة ولم يشغلهُ الوطن عن أُمَّتِهِ

*حوار: محمد صالح الجرادي **

14 عاما على التلويحة الأخيرة لأحمد السقاف، الأب والشاعر والمفكر والسياسي والمثقف العربي والقومي والإنساني.. وقبل ذلك الأب، الذي قررت ابنته القديرة فارعة السقاف، أن تخصّ «البيان» بوقتها رغم انشغالاتها على رأس مؤسسة لوياك، هذه السانحة بالمناسبة، لتفتح أوراق الذكريات مع والدها الراحل.

● مرحبا أستاذة فارعة، ومرحبا من خلالك بأخويك محمد، وأسامة، وأخواتك هيفاء، ولمياء، وميسون، كأجمل ما يذكرنا بالشاعر أحمد السقاف، والأقرب إلى روحه وصوته وأشيائه الخاصة والحميمة. اسألك فارعة، إلى أي حد حضور روحه معكم وسط تقادم سنوات رحيله التي ناهزت العقد والنصف؟

- روحه تعيش معنا نحن أولاده، من دون شك، ولكل واحد منّا طريقته في الشعور بذلك، لكنني مخوّلة بالحديث عن نفسي، وأستطيع أن أدّعي معرفتي به إلى درجة أنه لم يكن يحتاج خلال السنوات العشر الأخيرة على الأقل، من حياته، أن يتكلم لأعرف ماذا يفكر أو ماذا يريد أن يقول. وأحسب أيضا أنني اكتسبت عاطفته العميقة تجاه ما ترك من متعلقاته الشخصية وأشيائه الحميمية، فضلا عن أفكاره وقيمه ومبادئه وعلاقاته التي ظل وفيًّا لها طوال عمره.

● أخبرينا عن طبيعة ووضعية ما ألمحتِ إليه من متعلقاته وأشيائه الخاصة.

- هي أشياء كثيرة، شخصية وحميمية، صارت تأخذ شكل التعبير الروحي عن حضوره العميق: كتبه، ساعته، مفكرته الصغيرة التي كان يكتب فيها أرقاما وعناوين أو يسجل فيها أفكاره بكلمات قليلة، وكذلك أوراقه المكتوبة بخط يده، وصوره، وذكرياته.. إلخ.

أنا الآن أتحدث إليك من منزلي في بيروت، محتفية بكل هذه التعبيرات والتجسدات التي تبث حضور والدي معي في كل الوقت، والحال كذلك في منزلي بفرنسا. وفي مكتبي وحتى في نشاطات عملي في مؤسسة لوياك والمؤسسات التابعة لها. ولا أتصور أن ينقضي الأسبوع الواحد، رغم انشغالاتي، دون أن أجلس إلى والدي لساعات طويلة، وأحدق في ملامحه وأناقشه في كثير من أفكاره.. وهذا ما يحدث من خلال أوراقه وصوره وكتبه وذكرياته التي قررت أخذها من منزله/ منزلنا، في الكويت، للحفاظ عليها، بعد أن لحقت به والدتي، قبل ثلاث سنوات، رحمة الله عليهما، وبعد أن آلت ملكية المنزل إلى شخص آخر!

● نفهم أنه تم بيع المنزل؟

- مع الأسف، نعم، وصراحة لم تنجح محاولتي ومعي أخواتي في إقناع أخوينا بالعدول عن فكرة بيع المنزل، مع اعترافنا بحقهما القانوني في هذا الأمر، وخضوعنا أخيرا لرغبتهما.

● (مقاطعاً) كان الجدير أن يتم تحويل البيت إلى متحف يحمل اسم السقاف، يضم مقتنياته وأشيائه وأوراقه وصوره ومكتبته.. الخ؟

- هذه مسألة كان يفترض من الدولة أن تقوم بها، وما كنّا لنمانع لو أن الدولة اقترحت علينا ذلك، وتقدمت إلينا بتعويض.

● اسمحي لي باستدراك البحث معك عن توضيح ضافٍ لإشارتك الى الحضور لروح وصوت وأفكار والدك، في نشاطات «لوياك» قبل الانتقال بالحديث إلى ما تحفظه ذاكرتك عن علاقته بالكتابة وظروفها وطقوسها.

- أشعر دائما بأن مهامي في مؤسسة لوياك هي امتداد للمهام التي كان والدي يهتم لوجودها وانتظامها واستمراريتها وفعاليتها في خدمة القضايا الثقافية والمجتمعية والإنسانية.

وفي الواقع، شعرت على نحو خاص، بالاستجابة لبعض آماله التي ربما لم تتحقق في حياته، بعد اتساع جهود المؤسسة وافتتاح مكتبها باليمن في فترة لاحقة من وفاته، كرديف لمكتبيها في بيروت، والأردن، ومقرها الرئيس في الكويت.

لوياك في اليمن

● لماذا تأخرت «لوياك» عن وجودها في اليمن؟

- سأحكي لك عن وصول «لوياك»، أخيرا، إلى عدن ولحج وحضرموت من الجنوب اليمني، إنها قصة بدأت من صوت سيدة كويتية لا أعرفها ولا تعرفني. كانت قد هاتفتني بعد عشرة أيام تقريبا من وفاة والدي، وأخبرتني أنها لم تكن تعرف شيئا عن أحمد السقاف، قبل تلك اللحظات التي شاهدت فيها جنازته المهيبة على التلفزيون، والحديث عنه كشاعر وأديب كبير وشخصية لها مكانتها الكبيرة في الكويت والوطن العربي.

وبطريقة ما، جاء في حديثها: «ربما، والله أعلم، أن والدك كان يأمل استكمال مشروع معيّن في حياته، إلا أنه تقريبا لم يتمكن من ذلك». لقد رأته في منامها داخل قصر فخم، كما تقول، وحين أبدت أمامه دهشتها لرؤية ذلك القصر، أخبرها بأنه لم يكتمل، وأشار لها ناحية بعض الغرف الفارغة.. ومضى يكرر لها أن القصر لم يكتمل!

ولا أنكر إحساسي منذ تلك اللحظة بضيق شديد، وظل هذا الإحساس يلازمني بين حين وآخر لفترة طويلة لاحقة، ولم أجد فكاكا منه حتى في اللحظات التي فكرت بأن مجموعة القصائد المصفوفة وغير المطبوعة في كتاب، قد تكون هي الشيء الذي لم يتمكن والدي من استكماله. وحين قررت استشارة د. خليفة الوقيان، أقنعني بأن هذا الجهد لن يكون موازيا لحجم الجهد المنجز في وقت سابق من قبل المجلس الوطني للثقافة، والذي تمثّل في إصدار موسوعة كاملة في جزأين أو ثلاثة عن السقاف، فعدلت عن المحاولة إلى أن قررت بشكل مفاجئ التواصل بأهلنا في منطقة الوهط، في «لحج» اليمنية (مسقط رأس الوالد)، وسافرت إلى هناك خلال عام 2014، وأقمنا بازارا خيريا، وجمعنا تبرعات من أجل مهمة إعادة تشغيل مستشفى الكويت بالوهط، بعد أن تسببت الحرب في توقفه عن العمل وإفراغه تماما من أجهزته ومعداته!

وبقدر ما شعرت بالهدوء بعد إتمام ذلك، وجدتها فرصة للتفكير جديا في تأسيس مكتب لـ «لوياك» في عدن، وبدأنا عمليا في تنفيذ نشاطات إنسانية، كان ذلك مع بدايات الحرب، وقد آلمنا جدا مقتل اثنين من موظفي «لوياك» وهما يؤديان نشاطهما الإنساني هناك. ومع ذلك استمرت نشاطات المكتب، على مستويات مختلفة، وإلى الآن تمكّنا من اعتماد فرق تابعة في لحج وحضرموت.

● أعود لأسألك عن الطقوس الخاصة التي تتذكرونها للوالد في تجربته الكبيرة والطويلة مع الكتابة شعرا ونثرا.

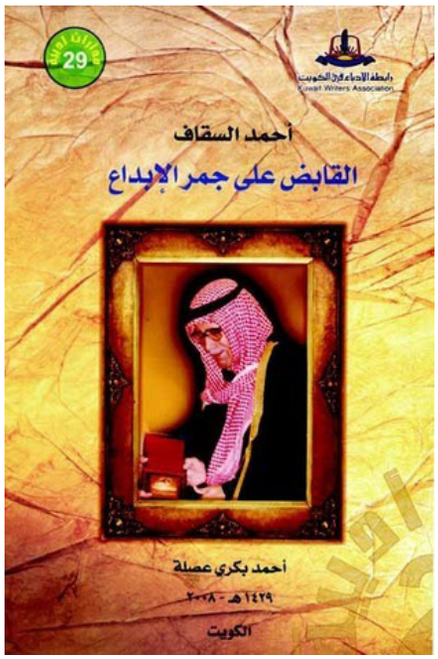

-بالطبع، لم يكن يخبرنا أنه بصدد الكتابة، لكن كنّا نعرف ذلك تلقائيا عندما يدخل إلى مكتبته الخاصة، ويغلق الباب جيدا. وكنا نعرف أيضا أنه يتعيّن علينا الهدوء التام في البيت، وعدم الاقتراب من باب المكتبة، ولكن في حالات ضرورية كان يسمح لوالدتي بالدخول إليه للحظات سريعة.

● وماذا عن الأوقات التي يكون أو تكونوا معا في نزهة أو إجازة صيفية بعيدا عن البيت؟

- لا ليس بذلك القدر من الانهماك في الكتابة. لطالما عرفت أن طقسه المثالي للكتابة كان في مكتبته في المنزل.

أحيانا في حالات معيّنة، مثلا، عندما نكون معه خارج المنزل، كنت ربما من يلاحظ بصمت شروده فجأة، قبل أن يبحث عن مفكرته الصغيرة التي ترافقه. ولم أكن أسأله ماذا كتبت أو ماذا تريد أن تسجل!

كنت أعرف أنه في الأغلب يسجل مطلع قصيدة أو فكرة مقالة لكي يتمكن من العودة إليها لاحقا. أما إذا كنّا خارج الكويت؛ في سويسرا مثلا، أو في لندن، فكان يختار ركنا من الشقة الصغيرة التي كنّا نسكنها، ليكتب أو يتصفح أوراقه، وأحيانا يلوذ إلى ركن هادئ من مقهى يتردد عليه في سويسرا أو في لندن. وأتذكر أنه كان يصطحبني معه إلى المقهى، حين لم يكن يرغب بالكتابة فقط!

● هل كنتم ولو - بدافع الفضول - تطلبون قراءة ما يكتبه من القصائد مثلا قبل نشرها؟

- في الأغلب كنّا نقرأ قصائده منشورة في المجلات أو الجرائد، وكنا نسمعه أحيانا يقرأ قصائده على والدتي.

وفي حالات نادرة، كانت أختي هيفاء تحظى منه بهذا الأمر، لأنه كان يعرف ميولها الأدبية ومحاولتها كتابة الشعر، لكن ما أتذكره أنه قرأ لي قصائده كلها التي كتبها في فترة الغزو العراقي للكويت قبل أن نشرها. كنت محظوظة جدا خلال هذه الفترة ومعي ابنتي نادية التي كانت لا تزال صغيرة، بملازمة أبي وأمي، كانت أكثر الفترات تقريبا حميمية، وكنا لا نفترق أبدا. وقد أتاح لي هذا القرب وضعي الاجتماعي بعد انفصالي من زواجي الأول بين عامي 1988 و1996.

السقاف ونكبات العرب

● بما أنك لازمت الوالد أثناء فترة الغزو العراقي للكويت، حدثينا عن ذلك؟

- كانت فترة عصيبة بالنسبة إلى الوالد ولنا جميعا، ولكل الكويتيين، إنما بقدر ما كنت أرى والدي حزينا، كان أيضا متفائلا بأن الكويت ستُنجز التحرير، وقد كان واضحا هذا في مجموعة القصائد التي كتبها في تلك الفترة، وضمّها في ديوان شعري عنونه بـ «نكبة الكويت».

كنّا في سويسرا، وكان يتابع الأحداث لحظة بلحظة، وعادة ما كنت أترجم له الأخبار والتقارير والتغطيات المباشرة التي كانت تبثها قناة سي إن إن.

ثم أنه لم يكن ليتوقف عن الكتابة أو التواصل مع شخصيات سياسية وثقافية ودبلوماسية من أصدقائه العرب، ويفصح لنا عن توجّعه من البعض الذين كشفوا عن زيف ادعاءاتهم للأفكار العربية القومية!

● في مقابلة سابقة، تحدثت عن أن وجود السقاف كأب لم يكن ضرورة عاطفية فحسب، وإنما ضرورة لاستلهام مسارات حياتك الشخصية والمهنية والعلمية.

- نعم، هو وراء كل شيء حققته إلى اليوم في رحلتي العلمية والمهنية، وفي رؤيتي ومواقفي وأفكاري وعلاقاتي بالحياة والناس.. ثم إنني أجده داخلي في كل ما أومن به من القيم والمبادئ التي تغذيت بها منه. بما في ذلك موقفي المبدئي مع القضايا العربية القومية؛ كالقضية الفلسطينية وتمسكي بالحق العربي والحق الفلسطيني.

● إلى حد تظهر تأثيراته في التطابق أو التفاوت، فيكم أنتم أولاده؟

- أعتقد أن كل واحد منا تأثر بشيء ما أو اكتسب منه صفة معيّنة. وهذا طبيعي ويحدث في الأغلب بشكل تلقائي بين الأولاد والأبوين، لكن هناك ما هو أعمق في هذه المسالة، وهو اكتساب الأشياء أو الصفات من دون أن نشعر، بينما نحن نريد أشياء أخرى. هذا ما أحس به شخصيا، بالنظر الى اكتشافي متأخرا لوالدي، بعد وصولي سن الثلاثين وما فوق، وفي السنوات العشر الأخيرة من حياته، انتابني إحساس بالخوف ألا يفوتني هذا الكنز الذي هو أبي، لذا ساعدتني الظروف أن أكون قريبة منه أكثر من إخوتي، وشعرت بأنني حفظته بأفكاره وصفاته.. وفق حالة شعورية مشبوبة بحميمية العاطفة.

● في هذه المرحلة، كما أعتقد، كان الوالد قد دخل التقاعد من الوظيفة الرسمية.

- صحيح، ومرحلة التقاعد بقدر ما ساعدته على التفرغ للكتابة، بقدر ما جعلته تقريبا يعيش أطول. كانت الفترة من 1990 إلى 2003 هي أخصب وأغزر الفترات إنتاجا، فقد كتب مجموعة كبيرة من الأشعار، واهتم بسرديات أدبية أخرى تتعلق بالتراث الشعري، وأنجز قطوفا وأجزاء من الشعر العربي، في عصوره المختلفة.

وقد ألهمني كتابه عن الشعر العربي في العصر العباسي، في كتابة مسرحيتي «الخيزران»، وحتى القصائد التي اخترتها من كتابه هذا قمت بتلحينها وإنتاجها.

● أين وجدت دوره في تحفيز رغبتك بالكتابة للمسرح؟

- ظل والدي طوال عمره يشدد علينا بأهمية المحافظة على اللغة العربية، وأعترف، شخصيا، بإدراكي - متأخرة - لجمال اللغة العربية، وانتباهي إلى قراءة الشعر والأدب العربي، برغم أن الوالد فرض علينا في سنّ مبكرة قراءة بعض الكتب، وخصوصا تلك التي تتعلق بالتاريخ العربي، فمؤلفات جورجي زيدان مثلا، وروايات ميخائيل نعيمة، وغيرها من الكتب قرأتها وقرأها إخوتي قبل أن نتجاوز سن الثانية عشرة، كان يقررها لنا ويجد ملاءمتها في هذه السن. وهو بذلك كان يؤسس لعلاقة حب مع اللغة العربية والتاريخ العربي، من خلال تحريضه لنا على قراءة السرديات القصصية والروائية ذات البعد التاريخي العربي. ثم إنه كان يرمي من ذلك إلى خلق ارتباط قوي باللغة والتاريخ.

● لا بُد ايضا أنه كان يحرص على أن تتعلموا اللغات الأخرى.

- نعم. كان حريصاً على أن نتعلم أكثر من لغة للتعرف على ثقافات جديدة والاستفادة منها، لكننا في الحقيقة تمادينا في الإعراض عن اللغة العربية. وشخصيا، انتبهت متأخرة، بعد أن وجدتني في فترة مبكرة وقد ذهبت مع تيار اللغات الأجنبية قراءةً وكتابة.

● اسمحي لي هنا بالسؤال عن شخصيته؛ قدراته في استثمار وإدارة الوقت، خصوصا في الفترات التي كان يجد نفسه موزعا بين الالتزام بفروض وظائف عليا تقلّدها في الدولة، والاستجابة لإلحاح رغبة الكتابة، والكتابة الشعرية تحديدا.

- والدي من ذلك النوع المتوازن والفعّال في حياته بشكل كبير، وهذا هو سر نجاحه. لم يكن يجد أي مشكلة في ممارسة مهامه الوظيفية وقضاء الوقت معنا في البيت والتواصل مع الآخرين، وممارسة الكتابة أيضا.

هو أيضا شخص منظم ومنضبط، إلى درجة أنه لا يقبل أن يرتب أحد حقيبته الخاصة بالسفر، بما في ذلك أمي. وإذا عاد إلى المنزل من عمله أو نزهته، وهناك من ترك مثلا أيّا من أغراضه في الصالة، ينزعج جدا.

● هل كان يجد الوقت للجلوس معكم في البيت في ظل انشغالاته بالوظيفة والكتابة؟

- أوه.. كثيرا جدا، وسوف تفاجأ إذا قلت لك إنه كان يعرف عن كل واحد منا تفاصيل لم تكن والدتي تعرفها. وكان يحرص على معرفة ذلك. وكان حريصا على أن تكون الكلمة الفصل له في كل أمر يخصنا، وإذا كان مسافرا، فإنه بالرغم من توقّعات محمد وأسامة أن ينوبا عنه، يشدد على أن تكون نجيبة والدتي، هي مَن تمثّله. وكم تحضرني الآن وصاياه العشر أو العشرين التي كان يحرص قبل سفره على كتابتها وتعليقها في لوحة الوصايا، وتتضمن وصاياه المحافظة على النظام في البيت، وترتيب الأغراض، وإطفاء المصابيح حين لا حاجة لها.. وأمور أخرى ترتبط بالاستئذان عند الخروج من البيت، وعدم التأخير في حال ذلك إلى ما قبل التاسعة مساء.

●هذه الصرامة ماذا يقابلها أيضا؟

- الكثير من الحنان، والتعامل معنا في مسائل معيّنة بشكل ديموقراطي. وأتذكر في إحدى المرات، أنني أعربت له عن رغبتي في الذهاب للسينما، فلم يوافق في بادئ الأمر، لكنّه حين رآني أدرت له ظهري وانسحبت بملامح حزينة، ناداني: «تعالي ناقشيني، ليش ما وافقتك، قلت له لا، قال لازم تناقشيني، فرديت عليه وإذا ناقشتك، فهل تعطيني حقي؟». المهم تناقشنا، وفي النهاية وافق وقال: «أنا وافقت لأنك ناقشتيني مو عشان ما تقولي إنني مو ديموقراطي»، وبالعموم، هو كان يتوقع دائما أن نناقشه في كل شيء لا يوافق عليه، ولكن على أن يكون النقاش عند حدود معيّنة، وألا يأخذ شكل الجدل.

ملامح شخصية لأحمد السقاف

● هل كان يحب الطرفة والمزاح أحيانا؟

- جدا، ولن أنسى مثلا ضحكاته العميقة وضحكاتنا معه، عندما كان يعود إلى البيت، ليحكي قصة مصادفته لطفلة صغيرة عمرها ست سنوات، ويمضي في وصفها «شنو جميلة، شنو لطيفة وذكية..» وهو بهذه القصة ينتظر رد فعل ابنتي نادية، ابنة الست سنوات أو أقل، التي كانت تنفجر باكية ومحتجة وتصرخ: «قصدك إني مو جميلة ومو ذكية ومو لطيفة..» فترتفع ضحكاته ونضحك معه!

كذلك من الأمور التي أتذكرها أنه كان يؤدي مع أمي مساجلات شعرية، تنتهي في أغلب الأحيان بخسارته هو! برغم أن أمي لم تكمل تعليمها النظامي بعد «ثالث متوسط»، لكن والدي اهتم بها كثيرا وأكسبها ثقافة واسعة، وحرص على أن تحفظ العشرات وربما المئات من قصائد الشعر العربي القديم والمعاصر. وكان أيضا يلعب مع مها الطاولة.

● هذا يقودنا للسؤال عمّا إذا كان يمارس نشاطا رياضيا.

- نشاطه الرياضي الوحيد هو المشي، كان يمشي كثيرا، وكان يقول لي إن المشي يمنحه الإلهام. ثم إنه كان بعيدا عن الممارسات الضارة بالصحة، كالتدخين وغيرها، وفي المقابل لم يكن يرفض على الآخرين هذه السلوكيات الشخصية، ولم يمنعه ذلك من أن يكون اجتماعيا وكريما في تعامله مع أصدقائه وضيوفه؛ ليس لأن مكانته الوظيفية أو الأدبية تقتضي منه ذلك، بل هي سجيته في الأساس.. كان منزلنا لا يخلو عادة من ضيوف كثيرين؛ بينهم فنانون وأدباء وقادة سياسيون عرب وأجانب أيضا. من بين هؤلاء - إذا ما خانتني ذاكرتي - من الفنانين: عبدالحليم حافظ، أم كلثوم، نجاة الصغيرة، صباح.. وغيرهم.

● نجاة الصغيرة من بين هؤلاء كانت غنت له «أعد الحقيبة»، وكذلك الفنانة نور الهدى والفنان محمد مرشد ناجي، هل تحدث إليكم عن أسباب عدم غناء عبدالحليم أو أم كلثوم لأي من قصائده؟

- هذه المسألة، كما عرفت منه، يحددها الملحن الذي يختار النص ويستأذن الشاعر لتلحينه واختيار المطرب.

أصدقاء الحياة والفكر

● بالإشارة الى صداقاته وعلاقاته الواسعة على المستويات الثقافية والسياسية والاجتماعية كويتيا وعربيا، سأركز سؤالي عن أكثر الأشخاص الذين كانوا أكثر قربا من الوالد.

- في الحقيقة، كان والدي صاحب علاقات طيبة مع الجميع، ويحب الناس، وأصدقاؤه الذين عرفناهم في منزلنا كثر ويصعب حصرهم، لكن للإجابة عن سؤالك تحديدا، فإن د. خليفة الوقيان هو أكثر الشخصيات التي كانت على تواصل دائم بوالدي، وقريبة جدا منه، ويمكنني القول إذا كان ثمّة من يستطيع أن يدّعي معرفته بالوالد أكثر منّا نحن أولاده، فهو د. الوقيان. لقد كانت صداقته به قوية جدا وعميقة. وحتى الأيام الأخيرة لوالدي، كان الوقيان يواظب يوميا على السؤال عنه. وأتذكر اللحظة التي كان هو وأنا أول من عرفنا قبل أخوتي بلحظة وفاة والدي في ذلك الفجر الحزين من يوم الرابع عشر من أغسطس 2010.

● ختاما، سأفترض أن الوالد حدثكم أو تحدّث إلى آخرين بخصوص أمر مهم، وأبدى حرصا على ذلك في أيامه الأخيرة.

- بالفعل، أخبرني شاعر وإعلامي كويتي اسمه نشمي مهنا، أن والدي شدّد في حديث دار بينهما، على ضرورة عودة العلاقات بين الشعبين الكويتي والعراقي، وقال له «أوصيكم أنتم جيل الشباب من المثقفين والشعراء والأدباء والفنانين، بالقيام بهذا الدور وهذه المسؤولية، والوثوق دائما بأن الشعوب العربية عموما لا علاقة لها بما يفعله الحُكّام»!

وفي الواقع، لقد دهشت للطريقة التي تحدث بها الوالد، مع أنني استطيع أن أدعي معرفتي بوجهة نظره هذه مثلما أعرف وجهة نظره بشأن الغزو العراقي للكويت عام 1990، والذي كان يرى فيه شيئا من المؤامرة الأميركية، بدليل أن السفيرة الأميركية عندما أبلغها صدام بأنه سيقوم بغزو الكويت قالت له: «هذا شأن إقليمي لا نتدخل فيه». وكان والدي يرى في هذا الرد ما يشير إلى «علاقات» قد يكون صدام مدركاً لتفاصيلها أو تمّ استدراجه إلى فخ..!

* شاعر وصحافي يمني

من قلب التغريبة الفلسطينية.. وإلى أرواح الشهداء

السقاف ناهضاً من جديد في براكين غضب «طوفان الأقصى»

محمد صالح الجرادي

الأحداث المصيرية في حياة الشعوب، عادة ما تقود بالضرورة إلى الشعور مجددا، بمرارة خسارة المغادرين الذين نذروا جُل أعمارهم في التصدي للقضايا العادلة المرتبطة بها.

وفي قلب التغريبة الفلسطينية، القضية العربية والقومية المركزية للإنسان العربي، واستمرار مسلسل الغطرسة الصهيونية في تجريف الحق في الأرض والمقدسات، يكاد صوت الشاعر العروبي والقومي أحمد السقاف، ناهضا من جديد، على تقادم الغياب، مستعصياً على الخذلان والمهادنة والخنوع، وصارخاً:

يمينًا فلسطينُ لن نركَعَا
أمام اليهود ولن نخْضعَا
يمينًا نجلجلُ في الخافقين
ونمتلكُ القلبَ والمسْمَعَا
يمينًا يردّدها المسلمون
وتُشغل في السعي من قد سعى
لئن طال ليلُك بالغاصبين
فقد آن للفجر أن يطلُعا
وقد آن للعرب أن يزحفوا
إلى ثالث الحرمين معا
صبرنا فظنّ العدو الظنون
وبالغ في حجمه وادّعى
بني الغُرب عار على يعرُب
قبولُكمُ حاضرًا مفزعا
كرامتكم أصبحت في الرغام
وأرضكمُ للعدى مرتعا

ولا مبالغة، أن ملحمة "طوفان الأقصى" تنزع الى التذكير ببواكير موقف السقاف المدافع الصلب عن قضية فلسطين والحق الفلسطيني، والمحرض لأمته العربية في انتزاع الحق والكرامة.

بين فتك الظُبى وخوض الملاحمْ
ظهر المجدُ وهو جذلانُ باسمْ
بارك الله في الجهادِ ولا عاشت
نفوسٌ تعيش عيش البهائمْ
أيّ معنى للسلم إن سعّروا
الحربَ وما قيمةُ الجبان المسالمْ؟
ذا أوانُ النهوضِ يا معشر العربِ
فلا عذرٌ بعد ذاك لنائمْ

ولعل الراحل السقاف يستنهض، في ذكراه تلك، الروحَ المتدفقة في حقبة كانت التضحيات بالدماء والأرواح لتحرير المقدسات والتصدي لكل ما من شأنه التفريط بالقدس والأراضي الفلسطينية المحتلة خطوطاً حُمراً لا رجعة عنها، حتى أصبح مجرد الحديث عنها الآن جريمة يُدان صاحبها بالإرهاب ويُزجّ به خلف القضبان.

يا ابن القضيةِ يا ضحية جهلنا
أتريدُ حقِك؟
لا تَتركن البندقية!
قاتل فحقُك لن يعود بلا كفاح
ستعيش مهزوماً وتنهزمُ القضية
إن جرّدوك من السلاح
إن خدّروك ودجنوك وقيدوك!
لتسير في كبرِ المذلة
ركبُ قيادتُه لدى مَن شردوك
والمسرحية لن تكون سوى مظلة
وتحتها التهويدُ يفعلُ في ديارك ما يشاء
ويقولُ أنت أضعت حقك!
يا ابنَ الفواجع ليس عند الكاذبين سوى الخداع
هم مزقوك إلى فصائل
هم صدّروا التمزيقَ مختوما بختم تقدمية
وأكفهُم أبداً مع الباغي تقاتل
هيهات يصحو النائمون
إلا إذا علموا بأن دماءَهم شيء مُباح
ومفاصلُ الأعداء مُثبتة بأنظمةٍ مريبة
أما الهُتاف بـ "عائدون" وعائدون
من دون توحيد القوى فهو النواح
وهو الخطيئةُ والمصيبة
فمتى يُفيقُ الضائعون من الضِياع
قل لي بربك يا ضحية؟
فلترتفع كلّ النفوس إلى المحبة والإخاء
أتريد حقك؟
سل صانعي التاريخ فرسانَ القتال
سلهم عن الأهواز عن قممِ الجبال
وعن انتصاراتٍ فريدة
الموقظون عوالمَ الدُنيا لتعرف مَن نكون؟!
والباعثون القادسية
لتُبيد غزواً موغلاً في الجاهلية
ببطولة ستظلُ مفخرةً على مرِ القرون!
من بعدِ أن تعبَ الحديثُ عن الهزيمة
من بعدِ أن كُنّا نعيشُ بلا عزيمة
أتُراك تغتنمُ الشروقَ فتلثمُ الشمسَ الجديدة؟!
هذي وربّك فرصة جاءت إليك
خُضها فعَبء غدٍ عليك.

* كاتب من اليمن

شهادات شعراء وأدباء وكُتَّاب..

السقاف الذي ارتبط اسمه بالمهمات الثقافية ومشاريع التنوير العربي والقومي

من بين قليلين جدا، ارتبط اسم أحمد السقاف خلال العقود الطويلة الماضية بـ «المهمات الثقافية الكبيرة والمشاريع التنويرية الريادية»، ليس في الكويت وطنه الأول فحسب، بل على امتداد الخريطة العربية.

هل يلائم هذا الاستهلال، مهمة إيقاظ الذاكرة مجدداً، على أسفار أمجاد صوته الشعري العربي والقومي الرافض والمقاوم، وأفكاره العابرة للجغرافيا والهويات الصغيرة؟!

سنقول ربما.. لكنه يظل أقل كثيرا، بالبناء على شخصيته التي حضرت لـ ٧ عقود من الزمن، على مسرح الحياة الكويتية والعربية، مقرونة بالتعدد والتنوع والتفرّد: أدبيا، وثقافيا، وإعلاميا، وسياسيا.

«البيان» تستحضر وتتلقف إدلاءات شعراء وأدباء وكُتّاب ومثقفين كويتيين وعرب، بالوقوف على إحياء «سنوية رحيله» الرابعة عشرة.

الشاعر والناقد الكويتي خليفة الوقيان:

السقاف.. أحد كبار الشعراء القوميين

عُرف الفقيد الأستاذ أحمد السقاف لدى المعنيين بالثقافة والتعليم والإدارة والسياسة وغيرهم أنه علَم متعدد المواهب، ثري العطاء.

وجدير التذكير بحرصه الشديد على إتقان علوم العربية وحثّه الشباب العربي على إتقانها، وهو مؤمن إيمانًا راسخًا بأهمية اللغة في تقوية الأواصر القومية، والوقوف في وجه المخاطر التي قد تحوّل الأمة إلى أمم والوطن إلى أوطان، إن نحن فرّطنا في ذلك الأساس المهم من أسس وحدة الأمة.

وتتجه معظم كتب السقاف ومقالاته نحو قضية مركزية هي «القومية العربية»، وكان الهدف القومي حاضرًا لديه حين اتجه إلى التراث العربي، وبخاصة الشعر. وقد اشتهر - على المستوى العربي - بوصفه أحد كبار الشعراء القوميين، وأخذت بعض قصائده طريقها إلى المناهج الدراسية في أكثر من بلد عربي.

ويبدو أن السقاف كان يدرك ما للشعر من تأثير كبير في الجماهير العربية، وبخاصة في مرحلة التحرر الوطني، ولذلك كان يغتنم أي مناسبة دينية أو قومية أو اجتماعية، لكي يطل من خلالها على جمهوره، ويوصل من ثمّ رسالته.

آمن السقاف بأهمية الثقافة في تنمية الإنسان، وتفجير طاقاته، ومن ثم استثمار تلك الطاقات لخدمة القضايا الكبرى للأمة، ولذلك اتجه منذ صباه نحو المنابر التي تمكنه من الوصول إلى الجمهور، والتبشير بما لديه من أفكار وتصورات جادة وموجهة نحو خدمة الأمة.

وكان البدء بالإذاعة التي دخلها وهو طالب يتلقى العلم في بغداد، وكانت أحاديثه الإذاعية متجهة

نحو الكلام عن الجزيرة العربية، وقد نال إعجاب المدرسين والطلاب، بل إن شهرة تلك الأحاديث وصلت الى الملك غازي (ملك العراق) فأعجب به.

وذهب السقاف من بعد إلى وسيلة أخرى لخدمة الثقافة، فأسس مع زملاء له جمعية الضاد القومية في بغداد، وانتخب سكرتيرًا لها.

وفي عام 1945م أقام في الكويت ما سُمّي بـ «الندوة المتنقلة»، وهي ندوات تلقى فيها القصائد والأحاديث الأدبية، وكانت تعقد مساء كل خميس في منزل من يرغب أن تقام لديه.

وفي مطلع خمسينيات القرن العشرين، دعا إلى إنشاء النادي الثقافي القومي، فلبّى دعوته كل من: أحمد زيد السرحان، وأحمد الخطيب، وعبدالله علي الصانع، ويوسف مشاري البدر، ويوسف إبراهيم الغانم، وعبدالرزاق البصير، وعبدالله يوسف الغانم، وعبدالله أحمد حسين.

وكانت الثقافة حاضرة في تفكير السقاف، حين أصدر مجلة كاظمة، بالاشتراك مع عبدالحميد الصانع، وكذلك الحال حين قام بدور مهم لإصدار مجلة العربي، بالتعاون مع زميله في دائرة المطبوعات والنشر (وزارة الإعلام) بدر خالد البدر.

وحين أنشئت رابطة الأدباء عام 1964، أسهم في نشاطاتها، وأصبح أمينًا عامًا لها لعدة سنوات، وكان دوره في الرابطة مميزًا، إذ تولى رئاسة وفودها المشاركة في المؤتمرات الخارجية، فضلًا عن إسهاماته في مواسمها الثقافية.

امتلك السقاف قدرة خارقة على التواصل مع الناس باختلاف طبقاتهم وثقافاتهم وأعمارهم؛ فهو يجالس رؤساء الدول والزعماء السياسيين والمفكرين والمناضلين، مثل عبدالقادر الحسيني وساطع الحصري، وقسطنطين زريق، ومن هم في حكمهم، كما يجالس طلبة المدارس والناشئة من الأدباء وصغار الموظفين والعمال.

وهو موضع تقدير الكبار واحترامهم من جهة، وموضع حب الصغار وإعجابهم من جهة أخرى.

وحياة السقاف ثرية صاخبة، ولذلك كان عدد أصدقائه وتلامذته ومريديه وزملائه في النضال والعمل كبيرًا ومتنوعًا.

الشاعر الكويتي نشمي مهنا:

السقّاف.. عندما كانت «المجالس مدارس»

من نِعَم الملتقيات اليومية التي جرت في نسق المجتمع الكويتي، كعادة وتقليد وموروث قديم جداً، ظهور ما يسمى شعبيا «الديوانية»، وهو سلوك اجتماعي أصيل يجمع المتقاربين حسب مكان السكن أو صلة القرابة أو الهواية، أو غيرها من صلات.

أما النعمة الأهم عن هذ التقليد الشعبي، فهي وجود القامات الكبيرة من رموز الأدب والثقافة في «ديوانية رابطة الأدباء» واختلاطهم وأحاديثهم مع الأجيال الجديدة بتواضع، ولطالما كانت هذه المجالس «مدارس» فعليا، بوجود أحمد السقّاف وعلي السبتي وخليفة الوقيان وسليمان الشطي وسليمان الخليفي، وغيرهم.

حضور السقّاف ومجموعة الكبار في أمسيات ديوانية رابطة الأدباء كان التاريخ عندما يُروى شفوياً؛ التاريخ المُعاش والمستعاد والحقيقي بصدق الرواية والراوي، محطات غير مرصودة أو صفحات مطوية يغالبها النسيان، لكنها تعود طازجة عندما تُفتح بين المتحاورين وقريبة في أذهان شهودها وأبطالها.

في التسعينيات شغلني سؤال غياب الحريات والديموقراطية عن أولويات الأنظمة العربية، وخصوصا تجربة عبدالناصر، فتحيّنت الفرصة لسؤال الراحل السقّاف، وهو الأقرب لهذه التجربة وزعيمها، فكان الرد وكأنه بدهي بالنسبة له، حيث لم تمهلهم الحروب والعداوات الخارجية لإفشال «الناصرية»، فكان الهَم هو «الحرب أولاً»، الإجابة كانت مشابهة عندما توجهت بالسؤال للراحل عبدالعزيز الصرعاوي.

نصحني الاثنان بقراءة الظروف المحيطة في ذلك

الزمان، وعدم قراءة الماضي بعقلية العصر الآني، فلكلّ أولوياته وظرفه، ومهما كان التقبّل والاقتناع، إلا أننا في تسعينياتنا القريبة كان بإمكاننا أن نفخر بوجود مراجع ثقة وشهادات حيّة وصادقة على عصر مضى.

لا تقف موهبة السقاف عند الكتابة الشعرية، وإنما كغيره من مثقفي ذاك الزمان، كان منذوراً «للعمل الثقافي» وكل ما يخدم بلده الناهض، كمجايليه عبدالعزيز حسين وأحمد مشاري العدواني، أو عمل خليفة الوقيان وسليمان الشطي وإنجازاتهما في المجلس الوطني للثقافة، وهنا يبرز الدور التنويري لرجال الثقافة.

في التسعينيات، وفي سنواته الأخيرة، دعاني الراحل الكبير السقاف باتصال هاتفي لزيارته في منزله لجلسة شاي، الدعوة كانت بالطبع مفرحة وحميمية، خرجت منها بوصايا قيمة، مسبوقة بالتشجيع: «مهما كان من أمر الخلاف بين الدول العربية وسياساتها، قلمك نابض بالعروبة، فليخدم ما يقرّب بين الشعوب العربية ووحدتها، حتى لو كانت الأجواء حالياً مخالفة لهذا التوجّه».

الشاعر اليمني كريم الحنكي:

السقاف.. التجسيد الظاهر للمثقف العضوي

في لحظة فريدة مما حظيت به من جميل المصادفات ونوادرها، أتيح لي اللقاء بالأستاذ الكبير أحمد السقاف في داره العامرة بالكويت؛ إذ حرصنا - صديقي الشاعر د. جنيد الجنيد وأنا - على زيارته بأحد الأيام الأربعة التي قضيناها هناك.

وإذا كان ما يزيد تلك السانحة حميميةً وقوعها قبل أقل من عامين على رحيله، فإن أهم ما يميزها لقاؤنا أحد الروّاد الكبار في تاريخنا الثقافي والأدبي والقومي المعاصر، ومن أهم الشخصيات اليمنية والكويتية والعربية الفاعلة في الواقع الثقافي والتعليمي والسياسي بوجهه المشرق في وطننا العربي عموماً؛ فضلاً عن شعره الرائق الذي تغنّى به عدد من المطربين العرب.

ولا عجب؛ فأول أرضٍ مسّ جلدَه ترابُها ونشأ فيها شخصه هي الوهط، بلد السادة آل السقاف أساساً في الديار اللحجية من الجنوب اليمني، حيث تعد بمنزلة هجرة من هجر العلم المعروفة في عموم اليمن، والتي برز منها عديد من الأفذاذ الذين يتقدمهم بلا شك الراحل الجليل الذي اتخذ الكويت

في شبابه الأول وطناً أول أسهم فيه بأدوار جليلة وفارقة في التربية والثقافة والفكر والنضال القومي العربي في أسمى تجلياته منذ مطلع الأربعينيات.

فكان تجسيداً ظاهراً لمفهوم المثقف العضوي الحديث قبل شيوعه، ومن دون أدنى ادعاء، من خلال أدواره في كل تلك المجالات، وإسهامه العملي عبر مختلف المواقع التي تولاها في التعليم والصحافة الثقافية والطباعة والنشر، فوزارة الإعلام الكويتية، والهيئة العامة للجنوب والخليج العربي، والأمانة العامة لرابطة الأدباء الكويتية، حتى المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مروراً بدوره التاريخي الذي كلفته به الكويت في التهيئة لإصدار مجلة ثقافية عربية كبرى، فكان له الجهد المعروف في إنجاح ذلك بصدور مجلة العربي في ديسمبر 1958.

أما ثمار جهده الملموسة في اليمن جنوبه وشماله وغيره من البلدان العربية في الجزيرة، فلا تزال شاهدة على ما قدّمته الكويت لوطنها الكبير، وعلى ما بذله السقاف، وشاهداً حياً تلمسه فيها الأجيال وتتذوّقه جنيًا.

عزيزة على النفس جداً هي اللحظات تلك التي أتيح لنا فيها الجلوس بحضرة واحد من كبار عصرنا المعدودين وهو محتفظ في آخر عمره المعطاء بحضوره الجميل وصفاء فكره وروحه اليمنية/ الكويتية، والعربية السامية على الأقطار.

الشاعرة والناقدة اليمنية د. ابتسام المتوكل:

السقاف.. العربي قولاً وفعلاً

قبل أربعة عشر عاماً، غادرنا الفارس العربي، بعد أن سجّل حضورا باهرا في ذاكرة العروبة متموقعا في أرض الكويت.

ولأنه العربي قولا وفعلا، لم تكن الجغرافيا عائقا أمامه، بل كانت مضمارا له لإثبات عروبته فيها وتجاوز قيودها، لتكون العروبة عنده أوسع والعربي أشمل، أليس هو القائل "العربي هو من اتخذ العربية لسانا واعتز بالثقافة العربية وأخلص لها واندمج في المجتمعات العربية؛ سواءً أكان عربيا في الأساس أم لم يكن".

ذاك هو أحمد السقاف الذي نبت في أرض اليمن وأزهر وأثمر في أحضان الكويت، فصار علما كويتيا دون تنكّر ليمنيته، حيث استطاع بتوجّهه العروبي مزج كل ذلك وتجاوزه، كما رأيناه في تعريفه لمن هو العربي.

وكم نحن أحوج اليوم إلى هذا التوجه العربي الذي يتجاوز الحدود المصنوعة استعماريا، ليغترف من أنهار الثقافة والتاريخ والأدب، ما يجعل الموقف أكثر إنسانية وانتماء.

ولعل السقاف هو الذي اقترح اسم "العربي" لمجلة كان هو أحد مؤسسيها والفاعلين في خروجها للنور عام 1958م.

وحين نتحدث عن حضوره في المشهد الثقافي والتعليمي والتنويري الكويتي، فينبغي علينا أن نعتد بهذا الأثر إلى المشهد العربي برمّته، أليست مجلة العربي صانعة وعي لأجيال عربية كاملة منذ صدورها حتى اليوم؟ كما ذلّل صعوبات جمّة في سبيل طباعة المخطوطات العربية القيمة، وعلى

رأسها معجم تاج العروس.

وما يعزز ذلك هو جهوده وقد عُيّن بدرجة سفير في الهيئة العامة للجنوب الخليج العربي عام 1965م، وهذه الهيئة ضمن هيئات وزارة الخارجية، وكانت مكلفة بالعمل على بناء مدارس وجامعات ومستشفيات في اليمن شماله وجنوبه والإمارات والبحرين وجنوب السودان.

ومن هنا، فالسقاف ذو التوجه العروبي كان أحد صانعي نهضة الكويت وعدد من الأقطار العربية؛ سواء عبر إسهاماته الثقافية أم عبر عمله الدبلوماسي.

ولم يكن هذا العربي القح لينسى قضية العرب المركزية أو يتغافل عنها، فسجل حضوره بوصفه مثقفا وعربيا وإنسانا في موقف المدافع عن القضية الفلسطينية المنافح عن حق الشعب الفلسطيني في مواجهة العصابات الصهيونية المجرمة.

ودونت أشعاره ذلك، وهو الشاعر العضو في رابطة الأدباء بالكويت، بل الأمين العام لهذه الرابطة لعقد من الزمن؛ من 1974 حتى 1984.

ولا يمكن تجاوز مؤلفاته الأدبية والفكرية التي تعزز من حضوره الشعري وتكتمل معه لتقدم الصورة الأكمل لهذا العلم من أعلام العروبة، ومن خلال عناوينها يمكن فهم اشتغالات السقاف وتفهّم همومه الكبرى.

لننظر على سبيل المثال، لا الحصر، في عناوين مؤلفاته الآتية:

- أنا عائد من جنوب الجزيرة العربية.
- حكايات من الوطن العربي الكبير.
- تطور الوعي القومي في الكويت.
- أحاديث في العروبة والقومية.

وها نحن في ذكرى رحيل هذا الفارس العربي الرابعة عشرة، نستعيد بعضا من الزمن الجميل، ونستمد منه طاقة لفعل ثقافي وإنساني ينبغي أن يظهر وجهه العربي الأصيل في الوقوف مع فلسطين، وإسناد أهلنا بغزة عبر طوفان ثقافي يقتلع موجات التطبيع، ويتوازى مع "طوفان الأقصى".

الشاعر الفلسطيني الأردني موسى حوامدة:

السقاف.. كان يسمي الأشياء بأسمائها

يظل السقاف واحدا من أكثر المثقفين العروبيين، والذي لم يسعَ للشهرة، كما فعل غيره، وكان صاحب نفس عفيفة وعزيزة، وخدم الثقافة العربية، سواء في سعيه بوظيفته في الكويت، التي كلفته أن يسهم في إحضار مطبعة مجلة العربي، أو عمله أيضا في خدمة الثقافة العربية في أكثر من دولة عربية.

كان السقاف مثقفا عروبيا بكل معنى الكلمة، عمل بصمت وأخلص لمشاعره وانتمائه، وحين فهق الكثيرون أفواههم منادين بتفتيت وحدة الأمة، وزيادة شروخها آثر - يرحمه الله - الصمت.

لقد كان واضحا في تسمية الأشياء بأسمائها، كما كان يفعل عبدالكريم الكرمي أبو سلمى والجواهري وبدوي الجبل، وعمر أبو ريشة، قبل أن يتراجع الشعراء والكتّاب العرب عن تسمية الأشياء بأسمائها، وقبل أن تختفي مفردات مثل؛ (اللاجئين، والعدوان، والصهيونية، والثأر، والتحرير)، من قاموس المثقفين العرب في السنوات الأخيرة.

غيابٌ يأبى الرحيل

في وداع يعقوب السبيعي

متعب بن ظمنه *

قد لا يكون الروائي أفضل مَن يتحدث عن الشعر، فالنقاد غالبا ما يرجّحون كفّة القصيدة في مقارنتهم لها بالرواية، ويضربون مثالاً على صواب رأيهم بالصورة حين يشبهونها بالاثنتين، فالرواية هي صورة باهتة، وبالأبيض والأسود، أما القصيدة ففي نظرهم تتلألأ بالألوان الزاهية. وربما يستندون في تشبيه كهذا إلى كون الشعر جنسا مكثفا ومختصرا من اللغة يأخذ مكانه في المنتصف بين الموسيقى والرسم على المستوى السمعي والبصري.

فبهاء القصيدة ينبثق من تحوّل مفرداتها إلى رمزية تنقل المعنى والعاطفة، وبهذا المعنى يتحول الشعر إلى موسيقى الإنسان، بل ويتجاوز الموسيقى ذاتها، لكون القصيدة تستحضر قبل كل شيء المعاني الموسيقية والبصرية في حواسّنا والخيال.

وينطبق ما سبق على المنجز الشعري للراحل الكبير يعقوب السبيعي، فالجيل الذي ينتمي إليه كاتب السطور شاهد على ألق القصائد التي أبدعها شاعرنا؛ بدءا من ديوانه الأول "السقوط إلى الأعلى" عام 1970، والذي انبثق من كانت مناخات ثقافية في الكويت تميزت بالثراء فكري والخصوبة الإبداعية، وكانت سيرة الراحل تطوي في داخلها هذا الوهج الثقافي.

فخلال عقدين صدرت له 3 دواوين هي تباعا "مسافات الروح" (1985) و"الصمت مزرعة الظنون" (1989)، و"إضاءات الشيب الأسود" عام 1997. كما نشرت له أكثر من قصيدة في الصحافة.

ولعل انفتاحي المبكر على قصائد الراحل مع آخرين، كنّا نحاول الخروج من متاهات المعاجم الباردة وحواجز اللغة الشعرية الشائكة، جعلنا نرى القصيدة بعيون واسعة مندهشة، فكان الشعر هو الذي وضعنا على الدرب الذي ينتظرنا في نهاياته أسئلة الحياة الكبرى.

احتفى المنجز الشعري للراحل بالحياة صعوداً وهبوطاً في وضوحها وغموضها، في سلاسة وقعها وانعطافاتها المفاجئة، حيث توزّعت قصائده على قيم مثل الحب والوطنية وموضوعات تراوحت بين الوصف والمديح، وقد احتلّ الحب بوصفه أصل الحياة الحصة الأكبر من منجز الشاعر الكبير.

ففي ديوانه الأول وهبنا رسما دقيقا لتجليات الحب كما أبرزتها عناوين القصائد ومضامينها، وحجم المساحة التي أفردها للحب في مسيرته الإبداعية تجعلنا على وعي بأن الشاعر لن يغفر لنفسه أبدا إن لم يضع الحب نصب عينيه منذ البدء، وذلك ما أوقد حرارة العاطفة في ديوان "مسافات الروح"، وفي هذا المنحى كان صوت الراحل متفردا يأخذنا إلى السير خلف موسيقاه

كي تتحقق نبوءة ما.

وقد ظلت الطاقة الإبداعية الموجهة صوب الحب متوهجة في ديوانه الثالث "مزرعة الظنون" وقصائده التي سكبت معاني الحب في مفردات بهية، مثل كريستال وعروق الليل ويا فاتني وغيرها. وتميز ديوان إضاءات الشيب الأسود بالمشاعر الوطنية التي حرّكها حب الوطن بوصفه بيتا عزيزا هو لأهله كالقلب النابض بالحياة.

كان السبب في هيمنة قصيدة السبيعي على ذائقتنا رؤيتنا لها بأرواحنا وعيوننا، فالصورة الحسية تحتل حيّزا كبيرا من مساحة الصورة الشعرية في قصائده، لصلتها العميقة بمجموع التجارب الداخلية في ذائقته الجمالية، ولأنّ الصورة ذاتها تتحول إلى بلورة للخبرة الشعورية فتجسّدها على مستوى موضوعي. وهذا الدور الذي يتولى تنفيذه الخيال التصويري في غاية الأهمية، فهو يميط اللثام عن استعارات خارجية تجعل الحواس في جدل دائم، والاستعارة في غالبية قصائد الراحل تكتسب عمقا يتأتى من التعاقد المذهل بين العاطفة والصورة الحسية.

وبموازة ما سبق، فإن الصورة البصرية تنشغل، بدورها، بما تبلوره الصورة الشعرية الحسية، تأسيسا على حقيقة أن حاسة البصر تتصدر من حيث الصناعة الحواس جميعها، إلا أنها غير مقصورة في بنائها الصوري على الرؤية البصرية المحضة بشكلها المجرّد، بل يجب أن تتضافر وتمتزج بما تعطيه آفاق الرؤية العقلية، من دلالات وقيم فنية جديدة تتمخض عن الحوار المستمر والتفاعل الجمالي الحميم بين الصورتين البصرية والذهنية، من أجل إعطاء زخم فني للنص، مثلما تجلّى في قصيدة الأوج:

حوّليني لنسمة وبنفسج
وعبير فوق الكويت توهّج
صيّريني ببسمة منكِ قلباً
فوق ثلج خلف الشفاه تزلّجْ
حدّثيني بنصف حرف، فعندي
ألفُ قلب بآخر النصف يلهجْ
لي حديثٌ سلسٌ قُبيلَ التلاقي
فإذا جئت.. يا لساني تلجلجْ
حين ألقاكِ ينتشي كلُّ حي
ويصير الوجود أحلى وأبهجْ
يصبحُ العمر في حضورك أغنى
والثواني لديك أشهى وأنضجْ

والمتأمل في قصائد الشاعر الراحل يجد فيها تلك النزعة الموسيقية التي تتوارى خلفها شخصية شعرية فريدة منشغلة بالشجن والهيام. وبإيقاع متميز، بقي وفياً لخيار الشعر العمودي في مجمل قصائده.

والأرجح أن هذا الوفاء للشعر العمودي يثوي عميقاً في ميول السبيعي إلى الموسيقى، وجعلها عنصرا أساسيا في بناء قصيدته، وهو بالفعل ما جعل معظم قصائده قابلة للغناء وسهلة الانصياع لما ترصفه الألحان الموسيقية.

وهو ما حدا بالمطرب الكبير عبدالكريم عبدالقادر إلى انتقاء قصيدة "عصفورة ووردة" لإنشادها في مناسبة عالمية، ويستذكر المطرب الراحل تلك القصيدة قائلا: هذه الأغنية جرى تجهيزها بمناسبة انعقاد المؤتمر الإسلامي في الكويت، وكتب كلماتها الشاعر المميز يعقوب السبيعي، ولحّنها يوسف المهنا، وما حفزني لأداء هذه الأغنية كلماتها الجميلة ومعناها الرائع، إضافة إلى لحنها العذب، لذلك لم أتردد في تقديمها، ولن أتردد في أغنيات مماثلة لها في حال وجدت الجودة نفسها، لكنّ البحث عن الجمال صعب جداً، فهو كمن يبحث عن إبرة في محيط".

إن رحيل الشاعر هو خلل يصيب الوجود، فهو كانطفاء نجمة في السماء تغيب وترحل لتأخذ معها جزءاً أصيلاً منّا، خمود الضوء الذي أضاء زوايا أرواحنا يجعل الحياة أكثر مشقة ومكابدة. إن القصيدة منذ البدء كانت السبيل نحو الحياة والجمال والبهاء.

هذا هو الأثر الذي تركه الراحل الكبير لنا، ولا تزال تختلج في أعماقنا رعشة اليقين من أن الشعر لا غنى عنه لأنفسنا الشقية، الجامحة، المضطربة. ومع أننا نعلم أنه لا تمارين مفيدة على الفقد والغياب، غير أن الشعر في حد ذاته ينزل بنا الأوجاع حين لا يجد طريقه إلينا، قراءة قصيدة ليعقوب السبيعي تطردُ الصمت الهائل الذي يحاصر الروح أحياناً.

* روائي من الكويت

بين الشاعرين الكبيرين خليفة الوقيان ويعقوب السبيعي

أشهر معارضة شعرية في تاريخ الأدب الكويتي

ندى السيد يوسف الرفاعي *

المعارضة الشعرية لغةً: المقابلة، مأخوذة من "عارضتُ كتابي بكتابه"، أي قابلته.

المعارضة اصطلاحاً: هي أن يقول شاعر قصيدة يحاكي فيها قصيدة شاعر آخر، فينظم على منوالها ملتزماً الموضوع والغرض الشعري، وينسج على بحرها وقافيتها.

فشعر المعارضات هو نظم شعرٍ موافق لشعرٍ آخر في موضوع معيّن، حيث يلتزم نظم الشعرِ الآخر في قافيته، وبحره، وموضوعه.

فالمعارضات الشعرية هي أحد الفنون الأدبية في الأدب العربي، وهي نوع من المباريات الشعرية التي تُجرى بين الشعراء، وهي تختلف عن التقليد، فهي نوع من إثبات الذات والقدرة على الإبداع في ظل قيود مُعيّنة، وتبدأ بأن ينظم شاعر ما قصيدة، فيأتي شاعر آخر، إما للإبداع داخل هذا القالب، لأنه أعجبه، وإما لنقض معاني هذه القصيدة وأفكارها، لأنّه يتبنى وجهة نظر أخرى مضادة، لكنه إمعانًا في التحدي يلزم نفسه أن يبدع في نفس القالب الشعري الذي التزمه الشاعر الأول، فيلتزم نفس الوزن والبحر والقافية، وقد ازدهر هذا الفن في عصرنا الحديث، حيث يُعدّ أمير الشعراء أحمد شوقي من أبرز روّاده.

ومن مزايا المعارضات تجاوز مرحلة التقليد، والانطلاق إلى سياق الإبداع والابتكار، فقد فاق بعض المعارِضين فيما نظموه مَن عارضوهم من الشعراء، من حيث الأسلوب والدلالات والمضمون، وإذكاء روح التنافس بين الشعراء النبهاء لعرض قدراتهم في ميادين الشعر، مما جعل رياض الأدب خصبة بالفرائد، والنوادر، ليشيدّوا بذلك صرحاً أدبياً عظيماً يصوّر المعنى الحقيقي لمقولة "الشعر ديوان العرب".

فشعر المعارضات فيه الإثراء، إلى جانب المحافظة على التراث الشعري القديم، بما أضافه هذا النوع من صفحاتٍ ناصعة إلى ديوان الشعر صبَّت جميعها في بحر الأدب العربي.

والمعارضة لا تعني بالضرورة المعاصرة، فقد يعارض شاعر معاصر شاعرا جاهليا، كما أنها لم تقتصر على معارضات المحدثين.

ويُعد هذا الفن إحياء للفن العربي ولتراث الشعراء السابقين في كل زمان ومكان، حيث تنشط فيه الحركة الأدبية الشعرية، ويربط ماضي الشعر بحاضره.

ومن أشهر المعارضات قديماً معارضة الأخطل لـ "لامية" كعب بن زهير، الشهيرة بـ «بانت سعاد»، ومعارضة الكُميت الأسدي لمعلّقة عمرو بن كلثوم، ومعارضة البوصيري لـ "ميمية" ابن الفارض.

وأشهرها حديثاً: معارضة أحمد شوقي لـ "همزية" البوصيري الشهيرة بـ "البُردة"، و"بائية" ابن حمديس الصقلي، و"نونية" ابن زيدون، و"نونية" أبي البقاء الرُّندي، و"سينية" البحتري، و"هائية" الحصري القيرواني، ومعارضة محمود سامي البارودي لـ "بائية" الكُميت الأسدي، و"ميمية" البوصيري.

ومن أشهر شعر المعارضات شعر النقائض، كالتي جرت بين الفرزدق وجرير:

يقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا
بيتاً دعائمه أعزّ وأطولُ
بيتاً زرارة محتبٍ بفنائه
ومجاشعٌ وأبو الفوارس نهشلِ
لا يحتبي بفناء بيتك مثلهم
أبداً إذا عُدّ الفعال الأفضل

فيردّ عليه جرير:

أخزى الذي سمك السماء مجاشعاً
وبنى بناءك في الحضيض الأسفل
بيتٌ يُحمم قينكم بفنائه
دنساً مقاعدهُ خبيثُ المدخلِ
بات الفرزدق يستجير لنفسه
وعجان جعثن كالطريق المعمل

وهذا الموقف والمبارزة بين فرسان البيان يكشفان لنا مدى البراعة والبلاغة والفصاحة من خلال هذه المواقف التي جرت بينهم.

وقد انتقلت المعارضات الشعرية من العصر القديم إلى العصر الحديث، فقد عارض البارودي النابغة الذبياني، وعنترة بن شداد، وأبا نواس، والبحتري، والمتنبي، والشريف الرضي، وغيرهم من كبار الشعراء.

كان البارودي يلزم نفسه في هذه المعارضات بتتبّع جميع أركان المعارضة الشعرية من اشتراك الوزن والقافية وحركة الرويّ.

وقد عارض البوصيري قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير، التي قال في مطلعها:

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ
مُتَيَّمٌ إِثرَها لَم يُجزَ مَكبولُ
وَما سُعادُ غَداةَ البَينِ إِذ رَحَلوا
إِلّا أَغَنُّ غَضيضُ الطَرفِ مَكحولُ

فقال البوصيري في قصيدته:

إلى متى أنتَ باللَّذَّاتِ مَشغُولُ
وَأنتَ عن كلِّ ما قَدَّمْتَ مَسؤُولُ
فِي كلِّ يَوْمٍ تُرَجِّي أن تتوب غدا
وَعَقدُ عَزْمِكَ بالتَّسويفِ مَحْلُولُ

وقد بلغت شهرة البوصيري الآفاق في نظم الشعر بالمدائح النبوية، فظهرت قصائده مغلّفة بالروح العذبة والمعاني الصادقة مع روعة التصوير والتعبير، التي استلهمها من حبّه للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فجاءت ألفاظه دقيقة بديعة السبك والنظم، وكانت قصائده بمنزلة مدرسة لشعراء المدائح النبوية.

قصة البُردة

سبب تسمية هذه القصيدة بـ "البُردة" أن المرض كان قد اشتد على البوصيري، وفي إحدى المرات عندما كان نائماً، رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، وقد غطاه ببُردته (عباءته)، فأصبح وقد شُفي مما هو فيه، وفي هذه القصيدة جمع كل أدواته الشعرية وهمّته لمدح خير خلق الله، وقد شرح وعارض هذه القصيدة العديد من الشعراء.

ويبدأ البوصيري "البُردة" بالأبيات التالية:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرانٍ بِذِي سَلَمِ
مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ
أَمْ هَبَّتْ الريحُ مِنْ تِلْقَاءِ كاظِمَةٍ
وَأَوْمَضَ البَرْقُ فِي الظلْماءِ مِنْ إِضَمِ

ولعل أمير الشعراء أحمد شوقي هو أبدع مَن عارض "بُردة" البوصيري في رائعته "نهج البُردة"، التي قال في مطلعها:

ريمٌ على القاع بين البانِ والعَلَمِ
أحَلّ سفْكَ دمي في الأشهر الحُرُم

وقد أكثر أمير الشعراء من معارضة الشعراء

السابقين ومجاراتهم، فقد عارض شوقي قصيدة الحصري القيرواني (يا ليل الصّبّ متى غدُه؟)، في محاولة لاستجلاء قيمة التصوير الفني والأسلوبي في شعره، وقد ظهرت جليًا قدرة شوقي على تجديد المعاني وتوليد الأفكار، ومجاراة الشعراء السابقين ومعارضتهم والتفوق عليهم في مواطن كثيرة.

ومن أشهر معارضات شوقي "سينية" البحتري، التي عارضها بـ "أندلسيته" الشهيرة. إذ وصف الشاعر العباسي البحتري إيوان كسرى في "سينيته" المشهورة التي تتوارد في أبياتها التاريخية لهذه الدولة التي كانت ذات قوة عظيمة ثم اضمحلّت، يقول فيها:

صُنتُ نَفسي عَمّا يُدَنِّسُ نَفسي
وَتَرَفَّعتُ عَن جَدا كُلِّ جِبسِ

فكتب شوقي "سينيته" التي مطلعها:

اختلاف النهار والليل يُنسي
اذكرا لي الصبا وأيام أُنسِ

والأمثلة عديدة لا مجال لحصرها هنا، وإنّما ننتقل لنتحدث عمّا جرى في كويتنا في سبعينيات القرن الماضي، عندما غضب شاعرنا د. خليفة الوقيان لبعض الظواهر الإعلامية السيئة في صحافتنا المحلية الكويتية، فما كان منه إلّا أن أفرغ مشاعره شاكياً همومه لصديقه وصفيّه الشاعر يعقوب السيعي، الذي ما لبث أن استلّ سيف قلمه وأفرغ مداده العاصف، متجاوباً وملبياً نداء أخيه الأديب الوقيان، فكانت القصيدتان التاليتان اللتان تتجلى فيهما المحبة الخالصة بين الشاعرين الصديقين الحميمين:

كلاب الصيد

شعر: خليفة الوقيان

أبا «لنا» يا بهجة الأيام يا فيضَ السنا
يا نفحة الشوق إذا القلب من النّاي وَنَى
ويا سماوات من الأحلام يا روضَ المُنى
يا ملهماً من حسّه أطيافَ حُسن مُجتنى
ومترف اللفظ إذا مسّ عصيّاً أذهنا
أبا «لنا» هل الكويت اليوم وكرٌ للخنا؟
أما ترى كيف بغاثُ الطير تلهو حولنا
وكيف تختال كلابُ الصيد تيهاً بيننا؟
ورُبَّ وَجْه من جلود النعل أدنى معدنا
قد رضع المنكر والفحشاء حتى أُحصنا!
فلا يُرى إلّا حذاء يُمتطى إن دُهِنَا
لو نطق الأموات في القاع لضجّوا حَزَنا
يمشي على الأرض كما نمشي! فيا بؤسَ الدُنا!

****

أبا «لنا» إن طعين الخلق والروح اغتنى
وما درى أن به لكل خزيٍ موطنا

يريد أن ينطح بالقرن عتيّا أرعنا
فليعلم الأذناب في أوكارهم أنّي هنا
وأن لي سيفاً إذا مسَّ بغيّاً أثخنا
إني لأصلي جمعهم ناراً وأسقيهم ضنى
قل للألى كانوا على الدرب ذباباً موهنا
وبقعةً من عَفَنٍ مَن ذا يطيق العَفنا؟!
إني لأهوى أن أرى الدار فِناءً زيّنا
ينساب في أفيائها الحب فتزكو وطنا
لا ينهض العهرُ على أرجائها مُفتتنا
ولا يشيع البغيُ في أنحائها فكرُ الزنا
فإن بغى ذو أربٍ وما ارعوى وما انثنى
فلن يُرى في مبضعي إلّا عذاباً سكنا

****

إني إذا قلتُ بكم قولاً تفشّى علنا
فلتعلموا يا حفنة من جُثثٍ أنّي هنا

هزّت القصيدة الأخوية مشاعر شاعرنا يعقوب السبيعي، يرحمه الله، فكانت هذه الأبيات التالية.. من وحي الخاطر، وفيض المشاعر.

غضبُ الحروف

شعر: يعقوب السبيعي

رسمت حرفاً فانثنى نحوك طيب وسنا
خليفة الخير، لقد ناديت قلبي فدنا
زارته منك أحرفٌ رقّت فصارت سوسنا
ثم استحالت زفرةً حَرّى تثير الشجنا
يا صاحب الحرف الذى يشدو فينثالُ المُنى
ليلاك ليلاي فما أحلى الوداد بيننا
وما أرقّ ذلك المرسوم في أحداقنا
إن كنت مشغوفاً بها ففوق ما أنتَ أنا

****

أبا الحسان الفارسات الحب غصنا ليّنا
هيا اسقني أطيب ما عتّق من إحساسنا
واسكر معي من خمرة الإحساس سُكرا بَيّنا
حلّت وساقتنا إلى النور فكنت المُدمنا
يا صاحبي والحرف في عينيك يأبى الوسَنا
أبصرتَ إذ أرمد ليل الخاتلين الأعينا
فاسحق بنعليك خفافيشاً تدبّ حولنا
واهزأ بمن يحسب حجب الشمس أمراً هيّنا
واربط على أصداغ مَن يأبى الرشاد الرسنا
ففوق قلبه انحنى عنكب يرفو كفنا
مَن دس سُمّ نابه، فامدد إليه برثنا
وافقأ بعينيه العمى لكي يراك مُحسنا

القصيدتان نُشرتا في مجلة البيان (العدد 118، يناير 1976).

* شاعرة كويتية

الشاعر المحبوب

رجا القحطاني *

مـــــاذا أقـــــول وقـــــد مـــضـــى يـــعـــقـــوبُ
غـــيـــرَ الـــرثـــاء وقـــد أتـــى المـــكـــتـــوبُ؟
هـــو مـــــورِدٌ لـــو لـــم نُـــعـــانِ مـــن الـظّـمـا
مـــا مِـــن تـــــذوّقِ مـــحـــتـــواه هـــــروبُ
نـــخـــشـــاه حـــيـــث نـــغـــيـــب عـــن أحـــبـــابـــنـــا
ومـــــن المُـــحـــال نـــعـــود حـــين نـــغـــيـــبُ
يـــا شـــاعـــراً أبـــقـــيـــتَ فـــي أعـــمـــاقـــنـــا
حـــبًّـــا يـــقـــيـــمُ عـــلـــى المـــدى ويـــطـــيـــبُ
"بـــــو زيـــــد" عُـــــذراً إن أتـــــتْ مـــرثـــيـــةٌ
مـــن دون قـــــدْرك، فـــالمـــقـــامُ مـــهـــيـــبُ
وكـــــأنَّ طـــيـــفـــاً مـــن رؤاك يـــجـــيـــبـــنـــي
عـــنـــد الـــنِّـــدا إنْ مـــا اســـتـــطـــعـــتَ تـــجـــيـــبُ
فـــقـــدتْ بـــــلادك يـــــوم فـــقـــدِك شـــاعـــراً
فـــي حـــبّـــهـــا مـــنـــه الـــقـــصـــيـــدُ عـــجـــيـــبُ
أشـــرقـــتَ بـــالـــخُـــلُـــق الـــنـــبـــيـــل طـــبـــيـــعـــةً
وكـــــذاك أشـــــرقَ شِـــعـــرُك المـــرغـــوبُ
شـــعـــرٌ حـــوى نـــبـــض الـــحـــيـــاة تـــفـــاعـــلاً
فـــتـــوهّـــج الـــتـــصـــويـــرُ والـــتـــركـــيـــبُ
أدركـــــتُ مـــنـــك ومـــــن خـــلـــيـــفـــةَ وجـــهـــتـــي
فـــي الـــشـــعـــر، كـــم بِـــكُـــمـــا اســـتـــدل أديـــبُ
يـــشـــتـــاق جـــلـــســـتـــك الـــرفـــاقُ مـــحـــبـــةً
يـــــا أيُّـــــهـــــذا الـــشـــاعـــر المـــحـــبـــوبُ
وإذا بـــعـــدتَ عـــن الـــعـــيـــون تـــعـــذُّراً
فـــمـــن الـــقـــلـــوب الـــصـــافـــيـــاتِ قـــريـــبُ
ذكـــــراك فـــيـــنـــا تـــجـــتـــلـــيـــهـــا ســـيـــرةٌ
طـــابـــت، وشـــعـــرٌ زانـــــه الأســـلـــــوبُ
يـــعـــقـــوب لازمـــــتَ الـــتُّـــقـــى ودعـــاؤنـــا
لـــــك فـــــي جِـــنـــــان المـــتـــقـــينَ نـــصـــيـــبُ

* شاعر كويتي

الروائي الفلسطيني أسامة العيسة:
المكان جزء من مشروعي الروائي.. بناسه وأساطيره

حاوره: ممدوح عبدالستار - مصر

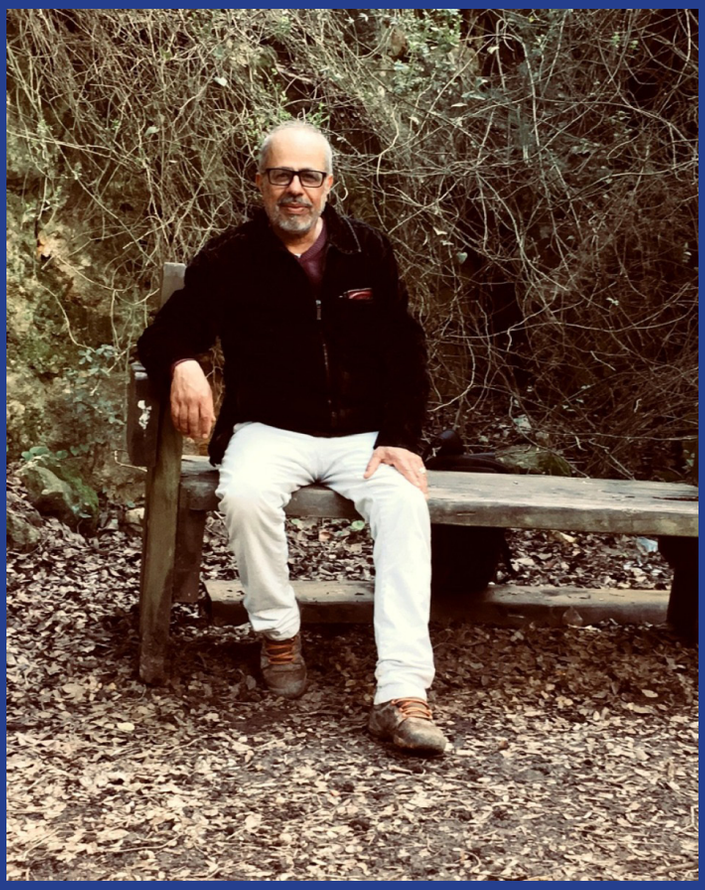

أسامة العيسة كاتب عشق الأرض فعشقته، ودافع عنها بتوثيق معالمها التي علي وشك الاندثار، ودفع ضريبة عشقه في سجون الاحتلال، فأعطته المدن خزائن الحكايات المتوارية عن عيون الجميع، وكتبها ليقاوم الألم، ويعطى للمهمشين صوتاً قوياً مسموعاً.

هو روائي، وقاص، وصحفي، ولد في مخيم الدهيشة بمدينة بيت لحم في فلسطين عام 1963. هو عضو بنقابة الصحفيين الفلسطينيين، وفي اتحاد الكتاب الفلسطينيين.

نال العديد من الجوائز؛ منها جائزة العودة للتاريخ الشفوي عن بحثه «حكايات من بر القدس» عام 2008، وجائزة فلسطين للصحافة والإعلام عام 2011، وفاز بالجائزة العربية للإبداع عن روايته «المسكوبية» عام 2013. وتوّج بجائزة الشيخ زايد للكتاب عن روايته «مجانين بيت لحم» عام 2015. أصدر أربع مجموعات قصصية: «ما زلنا نحن الفقراء أقدر الناس على العشق»، «الحنون الجبلي» (قصة طويلة)، «انثيالات الحنين والأسى»، «رسول الإله إلى الحبيبة»، وأصدر العديد من الروايات منها: «المسكوبية، و«مجانين بيت لحم»، و«قبلة بيت لحم الأخيرة»، و«وردة أريحا»، و«قط بئر السبع»، و«جسر على نهر الأردن»، وأصدر 6 كتب علمية وتاريخية، مثل «مخطوطات البحر الميت»، «تل أبيب لا تعرف النسيان»، «قصة اغتيالات قادة انتفاضة الأقصى»، «الطريق إلى عمانوئيل»، «ظله على الأرض». وأصدر منذ أيام قليلة روايته الجديدة «سماء القدس السابعة»، التقته المجلة، وكان لنا معه هذا الحوار.

● أصدرت هذا العام رواية سماء القدس السابعة، ما الجديد في روايتك من حيث الأسلوب والمضمون، وما المنهج الذي اتبعته في تأليفها؟

- كتابة رواية عن القدس شكّلت تحدياً للكتاب الفلسطينيّين والعرب، نعرف ذلك من الدفق العاطفي، والحماسة، والسذاجة، وقلة الاستعداد المعرفي، وتبنّي كليشيهات عن مدينة مقدّسة، وأمور أخرى في روايات كتبت عن القدس، ومن إدراك من البعض، كالكاتبة هالة السكاكيني، ابنة المربي الفلسطيني المشهور خليل السكاكيني، صعوبة الكتابة عن القدس.

يضاف لذلك، الفقر المعرفي عن القدس، وعن غيرها من مدن فلسطينيَّة. القدس بالنسبة لي ليست أندلساً مشتهاة، أو مكاناً طوباوياً في ذاكرة خيالية، لكنها مدينة أقدار، تودع احتلالاً لتستقبل آخر، فأتمعَّن في أقدار ناسها، الذين كُتب عليهم المقاومة، كمحاربي طواحين الهواء. وأيضاً هي مدينة نصوص، في محاولات احتلالية أخرى لا تنتهي، وكأنَّ من امتلك نصاً عن المدينة، امتلكها. المدينة، هي ناسها، الذين كُتب عليهم دائماً استقبال محتل يحمل سيفاً بيد وكتابا مقدّسا بيدٍ أخرى. من تبقّى منهم، بعد المجازر، يحاول التغلب على القدر التاريخي، ويكمل في نسج هوية. بالنسبة لي كل رواية، هي مغامرة في الشكل أيضاً، في روايتي هذه استفدت من عدة أساليب، واستخدمت الواقعية، والأساطير، والفانتازيا، وأسماء حقيقية أحياناً. يمكن للقارئ أن يكتشف ذلك. كل رواية، لها موضوعها وشكلها!

■ أنا قانع بالمتاح من حرية.. أحاول خدش الرقّابات المختلفة

■ ولدتُ في «بيت لحم».. المدينة التي لم تعرف السلام طوال تاريخها

● ماذا يعني لك مخيم الدهيشة، أو المخيمات بصفة عامة؟

- ولدت في مخيم الدهيشة المقام على أراضي مدينة بيت لحم، لأبوين لاجئين، مثل مواطني المسيح، الذي جاء الى العالم من هذه المدينة، حاملاً راية السلام، ولكن لا سلام لمدينته في هذا العالم.

أن ترى النور في مخيم للاجئين، على بعد نصف ساعة بالسيارة، من قريتك التي هُجِّر منها أهلك وهدمت، وسكنها أغراب، يعني أنك أتيت الى العالم لتستمرّ في الصراخ. أن تكون ابن مخيم الدهيشة يعني أن تحمل الحجر بيدٍ والكتاب باليد الأخرى. انتفض مخيمنا مبكراً ضد الاحتلال، وقالها «لا» مدويّة مبكّرة. سيتحوَّل المخيم إلى واحدةٍ من الهويات المتعددة.

هوية أخرى: الأزقة، والنَّاس، والرفاق، وسيرتقي المخيم إلى هوية إنسانية وثقافية، يأتيه ناس من مختلف دول العالم، وحتَّى من اليهود، ممن يرتبطون بقضية ناسه وشعبنا.

أن تكون ابن مخيم، يعني أن تعرف الاعتقال مبكراً، وتعيش لتنجب أبناءً يُعتقلون، ويواصلون، لعل جيلا مقبلا يصل.

أن تكون ابن مخيم، يعني أن تعيش على المؤقت، في حالة انتظار لا تنتهي للعودة إلى عالم دُمّر، ولكن لا خيار لك، لن تنتهي رحلة اللجوء الطويلة، إلا بالوصول إلى قريتي زكريا، في الهضاب الفلسطينية الوسطى. كل لاجئ هو «عوليس» في ملحمة عودة متشعبة.

● اهتمامك بالجغرافيا الفلسطينية، يظهر جلياً في أغلب رواياتك. فماذا يعني لك المكان الروائي؟

- أنا كاتب الزمكانية الفلسطينية. المكان الفلسطيني، رغم هالات القدسية الدينية، ما زال بكراً، اكتشاف هذا المكان لفهمه أولاً، ثم إشراك ذلك مع الآخرين، هو جزء من مشروعي الروائي، تقديم المكان وناسه وأساطيره.

الجغرافيا تتحوَّل إلى هُويّات معرفيَّة، محاولة استنطاقها لا تنتهي. الهوية الفلسطينيَّة، هي هوية ديناميكية. ارتبط المكان دائماً، بحيّز أكبر، كمصر والشام، وجاء وقت، باتفاق الدول الكبرى في بداية القرن العشرين، لجعله مكاناً معلّقاً، يتسع لدولة، وهي تهجِّر شعب البلاد، تهدد العمق المكاني لفلسطين، في مصر والشام وغيرهما.

● هل أثرت حياتك في مدينة المسيح، وساحتها، وكنيستها على مجمل أعمالك السردية؟

- ساهمت حياتي في المدينتين التوأمين بيت لحم والقدس، في تكويني الأوَّل المهم. جعلتاني أنتمي إلى الهوية المسيحية (الإسلامية - المسيحية)، التي ستتراجع بشكل دراماتيكي لاحقاً، لمصلحة تجليات أخرى للهوية، ومحاولات مستعرة لأن تكون هويّة فلسطين أحادية. تتغير الهوية في فلسطين، لكنّها لا ترتقي، بفعل المشاريع السياسية، لكنّه تغيير مؤقت، محكوم عليه بالفناء. علّمتني مدينة المهد (بيت لحم)، ومدينة القيامة (القدس)، تفتُّق الرؤية عن رؤى لا تنتهي. في كل فلسطيني معاصر ستجد مكونات هوياتية متسعة، من الوثنية، لليهودية، والمسيحية، حتى الاسلام.

● حدثنا عن تجربتك في سجن الاحتلال البغيض، وهل ما زال الاحتلال يضيّق عليك، وما تأثيره على كتاباتك؟

- آخر تجربة اعتقال لي في سجون الاحتلال كانت في آخر شهر رمضان الماضي، حيث اعتُقلت لـ 6 ساعات، لإجبار ابني المطلوب لقوات الاحتلال على تسليم نفسه. جاء ذلك بعد مداهمات مستمرة لمنزلي في مخيم الدهيشة، ومكتبتي في ضاحية خلايل اللوز جنوب بيت لحم.

لم يكن هذا استثناءً، فمنذ أكثر من 10 سنوات، أتعرّض وعائلتي لمثل هذه الانتهاكات. هي ضريبة البقاء في هذا الحيز. قوة الاحتلال طاغية، مؤثرة على البشر، والحجر، والطيور، والأشجار، فتأثيره مهمّ على كتاباتي. ربما لو كنت كاتباً في السويد مثلاً، لكتبت عن مواضيع أخرى.

● هل تكتب بحُريّة، أم أنك تحاول الوصول إلى مبتغاك بالرمز؟

- الحرية في الكتابة، كما تعلم، نسبية، أنا لست كاتباً في أميركا اللاتينية، وإنما أخضع للشرط التاريخي للكتابة، في ظرف زماني ومكاني. أمسك بيد القارئ للارتقاء معاً، مع كل عمل، القارئ العربي يقبل من الكاتب الأجنبي، ما لا يتقبّله من القارئ العربي. أنا كاتب قنوع بالمتاح من حريّة، أحاول دائماً خدش الرقابات المختلفة، ولا أعرف إذا كنت أُوفّق أم لا.

● كتاباتك لامست الثالوث المُحرّم، فهل شعرت أنك أعطيت هذه المواضيع حقها؟

- هي ملامسة، مجرد ملامسة، ربما اقتربت أكثر من المحرَّم السياسي، أمَّا بالنسبة إلى الدين والجنس، فالمسألة ما زالت بعيدة. أعتقد أن ذلك يمكن تعميمه بشكل أو بآخر على الأدب العربي الحديث. لقد كان أجدادنا، من أمثال المعري، والجاحظ، وإخوان الصفاء، وأبي حيان التوحيدي، والحلاج، والسهرودي، وكتّاب التراجم، وكتيبة طويلة من الأدباء أشجع منّا بما لا يقاس.

● هل ترى أسلوبك الساخر، وخاصة في رواية مجانين بيت لحم، يحقق لك المعنى المطلوب، وهل هذا مقصود بذاته؟

- كل موضوع يختار الشكل الفني الذي يلائمه، في «مجانين بيت لحم»، يوجد حضور للحس الساخر، وفي روايات أخرى يظهر ويتوارى. هذه لعبة الكتابة.

● فنك الروائي متأثر بشكل ما بعملك كصحفي، ما رأيك؟

- حصل، كما لاحظ زملائي، تأثير متبادل، ففي الصحافة أصنف أحياناً على الأدباء، وفي الأدب، وصفني البعض بالصحفي، في محاولة للتقليل من مشروعي الروائي، وهذه نظرة قاصرة للعمل الصحفي وأساليبه. استفدت كثيراً من عملي الصحفي الطويل، ومن رحلاتي الميدانية، ومقابلة أعداد كبيرة من الناس، وأيضاً من الأساليب الصحفيّة المختلفة. ما يحدد العمل الإبداعي، ليس اسم الأسلوب، بل النجاح في استخدامه، والإضافة عليه وتطويره.

● يعتبر بعض القراء والنقاد أنك روائي المهمشين، هل يعجبك اللقب؟

- أنا كاتب المهمشين، والمهزومين، والأقل حظاً، لأنني واحد منهم، لم أخنهم ولا أنوي فعل ذلك.

● في بداياتك كتبت القصة القصيرة؛ هل هجرتها أم سنرى لك مجموعة قصصية في المستقبل؟

- صدرت لي عدة مجموعات قصصية، آخرها: رسول الإله إلى الحبيبة، عام 2017م، وهي تجربة جديدة في كتابة القصة؛ مشروعي في القصة أيضا مستمر، وربما تصدر لي في العام المقبل مجموعة جديدة.

كاتبة حازت جائزة «الصحافة العربية»

سوسن الأبطح صمدت في «الصحافة الثقافية» رغم الغوايات

هديل عطاالله - فلسطين

كتبت كثيرًا، وستظل الكاتبة اللبنانية سوسن الأبطح تكتب عن «الجواهر التي لا تزال تظهر وتُمتع وتدهش»، وما بين المُزدوجين مقتبَسٌ من الصحافية المخضرمة القادرة على استثارة النبض في المواد الثقافية، مع حرصها على لغة التبسيط.

هي لا تُغرق القارئ في الجدية والضّجر، وكل ما يهمها أن تربط الثقافة بالحياة والناس، وهذا على الأقل ما تعلّمته من الشخصيات التي حرّكتها الكلمة.

على سبيل المثال، لنتأمل ما كتبته عن زيارتها لمنزل الأديب المصري عباس محمود العقاد المهدد بالزوال آنذاك، وقد امتعضت من إهمال بيوت الأدباء العرب: «من الغريب ألا يكون للعقاد نصيب طه حسين، وأحمد شوقي في الاهتمام بإرثه، أو حظ نجيب محفوظ، رغم أنه أحد أكبر أدباء العرب في القرن العشرين، وأشدهم بأساً وعناداً والتزاماً بالقضايا التي دافع عنها».

ولا تحسبوا أن الصعوبة كانت في اختيارها للمجال الثقافي، بل البقاء فيه، لأنّه المجال الأقل تقديرًا، حسب تجربتها.

«ومع ذلك صمدتُ لأني لم أحب ميداناً آخر، جرّبت كل المجالات، وكانت الغَوايات كبيرة في الذهاب إلى التلفزيون، أو الانخراط في الكتابة عن السياسة».. هنا بدأت حديثها مع مراسلة «البيان».

عملت الأبطح في عدد من المطبوعات، قبل أن تنضم إلى جريدة الشرق الأوسط، بدءاً من عام 1988، وتكتب في المجال الثقافي والنقدي، فضلاً عن كونها "كاتبة رأي"، كما أنها أستاذة ومحاضرة في اللغة العربية وآدابها بالجامعة اللبنانية، وتحمل درجة الدكتوراة في الآداب من جامعة السوربون.

ابنة البحث والقراءة

درست الأبطح الأدب العربي بمحض المصادفة، وكانت تلك فاتحة شهية وكأنها تكتشف نفسها، تقول: "بسبب الحرب الأهلية في لبنان في تلك الفترة، بدا الأدب مَهرباً جميلاً من واقع قبيح، منذ ذلك الوقت، فهمت قيمة الإبداع وقدرته على تخليص النفوس من شرّ ما حولها، وأداء دور المخلّص من السوداوية والأرق وانسداد الأفق".

خطت أول خطوة في مشوارها الصحفي بالعمل بنظام القطعة، بينما كانت تكمل دراستها في باريس، ووقتئذ كانت الصحافة المهاجرة في عزّها، تبعاً لحديثها.

وتضيف في هذا السياق: "بطبيعة الحال كتبت في مجال يتناسب مع دراستي، لم أفكر أبداً أن أكتب في السياسة، وأذكر أن أول موضوع كتبته، تناولَ كتابًا يؤرخ للحركة السينمائية العربية".

في مقتبل شبابها، عملت مراسلة ثقافية في باريس، وانخرطت في "الفرنسية" حياة وثقافة ومعرفة، واعتبرتها مرادفًا للمعرفة بلا كلل، دراسةً وكتابة وصحافة وبحثًا، تلخّص تلك المرحلة في حياتها: "باريس في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي أكثر غنىً من

اليوم، كنت حينها صغيرة، وهذا فتح لي نوافذ، وحقّق ليونة فكرية ولَدانة في الذهن".

ولعل التحدي الأهم الذي ظهر في رحلتها المهنية، يتمثّل في انتقالها من العمل "طالبةً وهاوية" في باريس إلى صحافية تغطي مختلف جوانب الحياة الثقافية في بيروت، وقد خرجت المدينة للتو من الحرب الأهلية، كما تقول.

تلك المرحلة، تحديداً، أمتعتها كثيراً على صعيد متابعة حيوية فكرية وفنية لبلاد كأنها تُولد عفيّةً من رحم العدم، على حدّ تعبيرها، لا سيما متابعة المسرح والسينما والفن التشكيلي والإصدارات والموسيقى والرقص المعاصر.

وتوضح: "عشتُ فرح تعبير مجتمع عن نفسه برحابة وحريّة، ومحاولته إعادة تشكيل ذاته إبداعياً، تلك سنوات ذهبية لم يُكتب تاريخها بعد، مرحلة أخرى مفصلية، هي التي نعيشها اليوم".

مرّت سنوات طويلة، وما زالت تعدّ عدّتها لكل مقابلة تجريها بأفضل ما لديها، ففي عُرفها "للمقابلات حتماً أصول"، التي تشرحها أكثر من وحي تجربتها: "إن محاورة أديب أو كاتب تستدعي معرفة بمناخاته عمومًا، وكتاباته، وحياته، وجديده كما قديمه، يظن بعضٌ أن إجراء المقابلات هو أسهل أنواع الكتابة، لكنّها قد تكون الأصعب، لأنّ الجهل بالكاتب الذي نحاوره، لا يمكن إلا أن يبدو جلياً للقارئ ومفضوحًا".

وتستفز سوسن أسئلةٌ من هذا القبيل: عمَّ تتحدث روايتك الأخيرة؟ أو كيف تقيّمها؟ وما مدى رضاك عنها؟.. فهي من شأنها أن تحبط الأديب ولا تشجعه على الإجابة، ومثلها أسئلة على شاكلة "ما رأيك بالجيل الجديد من الكتّاب؟ أو كيف تنظر إلى المرأة؟".

وتذكرّ كل من يريد المُضيّ قدماً في صحافة متخصصة تتطلب جهداً مضنيًا: "السؤال الذكي يحرّض على إجابة عميقة، والأسئلة الذكية هي ابنة البحث والقراءة والمعرفة وسعة الاطلاع، وكصحافية، غالباً ما أقرأ في المقابلات مجمل أسئلتها، إن أعجبتني قرأت الإجابات".

تخبرني سوسن عن الشخصيات الأدبية التي رأت حولها هالة، في حقيقة الأمر أحبّت أدباء كثر، وكلما قرأت نصاً جميلاً، اعتقدت أنه سيبقى قائماً في ذاكرتها، لكن ما يلبث أن يتبدّل مع كل نص جديد.

واستدركت: "غير أنني أعتقد أن المرأة تلهم المرأة، حين كنت صغيرة شعرت بتماهٍ كبير مع غادة السمان، وليلى بعلبكي، وحتى نوال السعداوي، سعدت بلقاءات عديدة جمعتني بحنان الشيخ، وأحزن لأنني لم أتمكن من لقاء غادة السمان، بسبب ضيق وقتي واضطراري للسفر حين أتيحت الفرصة".

وتتطرق إلى ضيوفها في حقل الثقافة والأدب ممن حالفها الحظ بمقابلتهم: "سررتُ بمقابلة إدوارد سعيد، وقسطنطين زريق، ومحمود درويش، وأنسي الحاج، وسعيد عقل، وغيرهم، كل واحد منهم كان لقاؤه مصدر سعادة كبرى، أما الشخص الذي تمنّيت لقاءه، ولم يقبل إلا أن يجريه ولدقائق عبر الهاتف، فكان برنارد بيفو، الذي غادرنا قبل فترة وجيزة، وكان أشهر مقدم برنامج عن الكتب عرفه التلفزيون الفرنسي. يومها رفضتُ "الدقائق التلفونية" التي منحني إياها، لأنني أحببت رؤيته والحوار المباشر معه، وبوفاته ماتت الإمكانية".

تشدها اللغة العربية، لأنّها تدخل شغاف القلب، حسب تعبيرها، "صحيح أن النصوص الجميلة تقلّ مع الأسف، لكنّ النص العربي الساحر يملك مني الوجدان، ثم إنه يجعلني أشعر بالأمل، وبأن الآتي مثمر وواعد، وأن مستقبلنا ليس مظلماً كما يُراد لنا أن نشعر"، تقول.

وفي حضرة الأدب العربي القديم، تشعر أن الجاحظ هو جدّها، وأنها تتحدّر من سلالته، وتحب أن تستمع له.

تبتسم وهي تكمل كلامها عنه: "لا أعرف كيف يمكنني أن أبلغ شيئاً مما أتقنه، يدهشني، وأود أن أسأله: كيف فعل، كي تصبح له كتابة عذبة وليّنة وبليغة إلى هذا الحد؟، أرى أنه يكتب بسلاسة ما يتكلم، ويشرح وكأنه يجلس معنا، رغم السنين التي تفصلنا عن هذه القامة الشاهقة، لا أراه من زمن آخر".

الحياة والمادة الثقافية

تساءلتُ فيما إذا ما كان تدريسها في الجامعة تخصص اللغة العربية وعملها الصحفي قد تبادلا النفع، لتؤكد لي أن عملها الأكاديمي حتماً رفد العمل الصحفي، والعكس بالعكس، كلاهما غذّى الآخر.

وتستطرد في السياق ذاته: "في البدء، كنت أخشى أن تفقد الكتابة رشاقتها، بسبب صرامة الأسلوب العلمي، لكنّ المِراس يجعل المرء يجد توازنه بين عالَمَين، كلاهما منفتح على المعرفة، والفضول، ولنكن أكثر دقّة، البحث هو أساس كل عمل كتابي، بما في ذلك الرواية والنقد وحتى الشعر، لذلك لا يمكن لـ "الأكاديمية" أن تكبح الروح الصحافية، بل إنها تمنحها شيئاً من العمق".

وتبدي أسفها لأنّ الصفحات الثقافية غابت أو تكاد عن الصحف اليومية العربية، بينما المجلات الثقافية احتجبت غالبيتها، ولم يبقَ إلا القليل.

ومن وجهة نظر الأبطح أن الوصفة التي تعيد الحياة للمادة الثقافية، هو ارتباطها المباشر بالحياة اليومية، وما يعني الناس ويهمهم، لا أن تبقى نظريةً ومقعرّة اللغة والأسلوب، مبيّنة: "الثقافة هي مرآة لروح شعب، والكلام عنها يجب أن يكون انعكاساً لها ومشابهاً لطبيعتها، لا مصطنعاً ومبهماً، يخاطب نخبة لم تعُد

موجودة، كل الموضوعات تصلح للكتابة عنها باعتبارها ظواهر ثقافية، من الطبخ إلى الأزياء، والتربية، وصولاً إلى الأدب. القلم الماهر بمقدوره أن يشرّح كل شيء، ويحيله مادة دسمة وممتعة".

من يحادث سوسن سيلحظ اللطف والعمق في تعاملها، ومن تفتر همّته سيجد عزمًا فيما تقوله: "اليوميات بوجوهها ومفاجآتها هي التي تمنح الكتابة مادتها وعنصر التشويق الذي لا بدّ منه، المتابعة على الأرض تجعل العين قادرة على التقاط الجديد، وما يستحق نقله والحديث عنه".

وربما لو أن أحدًا مكانها، لشعرَ، ولو للحظات، أنه ما عاد قادراً على العطاء في المجال نفسه، بعد الاستمرار في الكتابة منذ أزيدَ من ثلاثة عقود، لكن هذا لم يحدث معها، حتى أنها لا تتعجب من ذلك، فحسب رأيها أن الحياة متجددة، خاصة في زمن التحولات الذي نعيشه.

وتشعر بالفخر كلّما قرأت لأسماء قديرة في "الصحافة الأدبية"، لا للرغبة في المعرفة عن الموضوع فقط، وإنما أيضاً للاستمتاع بطريقة الطرح، محذّرة من أن أعداد الموهوبين في تراجع، دون أن نجد من بدائل، في حين تأمل أن تنمو المواهب في الصحافة الثقافية أكثر، وتعلو المنافسة بينها.

وفي نظرة للمستقبل، لا تخفي أنها تفكّر كثيراً بدور الصحافي، وما سيكونه في السنوات المقبلة، مع طغيان وسائل التواصل، والذكاء الاصطناعي الذي تتطور نصوصه كل يوم، وتعبّر عن حيرتها: "نعيش في ظرف لا سابق له ولا مثيل، لا أعرف كيف ستكون الصحافة وقد أخذت كل أدواتها تتبدّل".

لغة متوازنة في النقد

وحول مهمة الناقد التي تعدّت بكثير مهارات "المراسل الثقافي"، تفيد: "ما من شك في أن النقد يحتاج إحاطة وخلفيات ثقافية، وزادًا من المعرفة، وما يجب الحذر منه حقاً، هو إعجاب في غير مكانه، أو نقد مبالغ فيه، وهو أمر إنساني قد يقع فيه الناقد مهما بلغت الحيطة".

ومما يسمّم المواد الثقافية الصحافية، برأيها، الغياب شبه الكامل للنقد، حيث حلّ مكانه التوصيف، وفي حال كان ثمة نقد فهو إمّا مدح - وهذا الغالب - أو هجاء لاذع.

كما تشدد على أهمية المحافظة على لغة متوازنة وأسلوب مهذّب، لا يكيل المدائح ولا ينتقد انتقادًا جارحًا، وتلفت إلى أنها كتبت لسنوات طويلة عروضًا لكتب ومسرحيات وأفلام، قبل أن تتخذ خطوة باتجاه النقد، إذ لم تكن مؤهلة بعد، لتخوض هذا الغمار، وكان عليها أولاً أن تتسلّح بزاد كافٍ، والكلام لها.

كلاهما اعتاد الآخر، سوسن، والمتاحف والمعارض والمسارح، بحرصها على تغطية كل ما يتعلق بالمشهد الثقافي، وإجمالاً تجد أن الفنون تكمّل بعضها بعضاً، لكن الكتاب على وجه الخصوص يُحسن الصحبة إذا ما رَافقنا، وتقصد الكتاب بأشكاله كافة، الورقي والإلكتروني والمسموع، ويحلو لها هذا الوصف: "الكلمة المفكّر فيه والنصّ المسبوك، وإنه لنعمة كبرى لمن أراد أن يغتنمها، أن يصبح في متناول الإنسان لحظة يشاء، وبأدوات عدة".

ويحفل رصيد الأبطح بعمود صحفي تكتبه منذ ما يربو على ربع قرن، وتجدر الإشارة هنا إلى فوزها بجائزة أفضل كاتب عمود صحافي في "منتدى الإعلام العربي" بدبي عام 2023.

وتحكي لنا: "لا أصدق أنني كتبت كل هذا الكم، وفي كل أسبوع موضوع مختلف، لا أبوح بسرّ لو قلت إن هذه المقالة لا تزال تخيفني كلما اقترب موعد كتابتها، أشعر أنها تضعني في تَبارٍ أسبوعي مع قامات كبار، وفي مواجهة دائمة مع نفسي، لاختيار موضوع حديث لا يكون مكرورًا، وكتابته بطريقة لا تجعل الملل يتسرّب إلى نفس القارئ".

وتخبرني عمّا أضافته لها صحيفة الشرق الأوسط التي تعمل فيها، بقولها: " (الشرق الأوسط) هي بيتي وأنا ابنتها، مدرسة تتلمذتُ فيها، علّمتني أن أبقي كتابتي متوازنة، دون شطط، أو ذاتية لا مبرر لها، أحياناً كنت أتذمر بيني وبين نفسي، وأشعر بأن ثمة ما يكبح حريتي، لكنني مع الوقت وأنا أرى ما وصلت إليه الصحافة من ميوعة وإنشائية، أقدّر المكان الذي ترعرعت في كنفه".

وتدقّ جرس الإنذار بخصوص استسهال جمع المعلومات عبر الهاتف، وندرة التحقيقات الميدانية، وكي لا تفقد المادة الثقافية حيويتها ونبضها، فإنها تنصح الصحفيين بما يلي: "لا شيء يغني عن المعاينة، واللقاءات الحية، والتحدث مع الناس، ورؤية الصدق في نظراتهم".

وقد يكون الجيل الجديد من الصحافيين بحاجة إلى التوقف قليلاً عن لهاثه خلف الأضواء، علّه يصغي إلى ما تقوله سوسن: "كان لي حظ أن أحاط بأساتذة في المهنة يتحلون بكثير من التواضع. تعلمتُ منهم أن الصحافي الجيد هو الذي تبقى رجلاه على الأرض، ويعرف كيف يقدّم المعلومة على أناه وعنترياته الشخصية، تعلمت منهم أن أبقى تلميذة، وأن أتعلم وأتابع وأقارن، وأعرف أن اليوم الذي لا نتعلم فيه، نتراجع حتماً".

وها هي، تقولها صراحةً: "هذا الجيل ينقصه التواضع، ويكفي أن يدرك أن الصحافة، كما المهن اليدوية، لا نتعلّمها في الكليات، بل في غرف التحرير، وفي متابعة من سبقونا".

سحر موهبة القصّ

في دراساتها وأبحاثها التي أجرتها، استحوذت على سوسن مسألتان، حيث كان لـ "تأثير التكنولوجيا على الأدب والحضارة" نصيب وافر، بحكم تدريسها لمساق "المعلوماتية المتخصصة" في الجامعة، كما اهتمّت إلى حد كبير بدراسة "الشعور الديني في الكتابات الأدبية"، وهذا ما قامت عليه رسالة الدكتوراه خاصتها، علمًا بأن من الكتّاب الذين عادت لقراءتهم طه حسين، وتوفيق الحكيم.

وأمام أهوال ما يجري في قطاع غزة جراء الحرب الإسرائيلية الشرسة، فإنها تحزن لمستوى حراك المثقفين ومواقفهم، مضيفة: "لا يتناسب وحجم الكارثة، المنطقة العربية في حالة موت سريري، ولا تزال تحت تأثير هزيمة 1967، وكأنها وقعت يوم أمس، الإنسان العربي يعيش إحساساً رهيباً بالدونية لا مبرر له، ومن دون استعادة الثقة بالنفس، وإدراك فعلي لحجم قوتنا وجدارة شبابنا، فلا مخرج لنا ولا خلاص".

يقول ماريو فارغاس يوسا إن "الأدب هو أفضل ما اخترع من أجل الوقاية من التعاسة".. تتفق معه، وسرعان ما تَرد إلى خاطرها مقولة غسان كنفاني التي لا يذهب ألقها: "ليس المهم أن يموت الإنسان قبل أن يحقق فكرته النبيلة، بل المهم أن يجد لنفسه فكرة نبيلة قبل أن يموت"، معقبة: "ليس ما هو أمتع من حياة يستغرقها المرء بحثاً عن الجمال، وما أبشع الحياة من دون موسيقى وألوان وتصاميم وشعر وشطحات خيال".

تُرى هل استطعتِ إخراج الأدب من عبوسه، وجعله جزءاً من حياة الناس "تمامًا كما وصفتِ أحد نجوم الأدب (برنار بيفو) في واحد من تقاريرك"؟.. تتنهد قليلاً قبل جوابها: "ليس بالقدر الذي أتمنى، لأن الظروف في السنوات الأخيرة كانت متجهمة، صادفَ أن عشنا الكثير من الأيام السوداء، ومع ذلك، كنت أحاول ألا أقع في التشاؤم، وأستدعي ابتسامة على وجه القارئ، لا أدري إن كنت قد أفلحت أحياناً، لكنني أحاول دائماً، أن أرى النافع والإيجابي والطريف".

قلّبتُ فيما كتَبته سوسن في هذا الركن الرحب من الصحافة، ووقعت عيني على مقطع من هذا "البورتريه": "شبابنا يعيشون فراغاً روحياً، وكأنهم في متاهة، لذلك لا يكفيهم أن يقرأوا الأدب، بل يحتاجون أن يروا أن مَن كتبَ إنسانٌ مثلهم، يأكل وينام، وله سرير ومكتب وملابس وأوراق وأقلام، وبيت بسيط يعيش فيه مكتفياً، لكنّه مع ذلك، تسلّق ذُرى وقممًا، يشتهون بلوغها".

ولا تفتأ سوسن تتمسك بطمأنينة تتأتى من فهمها للحياة، بقولها: "اخترتُ دائمًا ما لا يجعل حياتي صاخبة ومضطربة، لتبقى هادئة، والحمد لله".

كل ما تتمناه، أن تجد بعضًا من الوقت لتركزّ وتكتب قصصاً أو رواية، لذا، هي في آخر سطر من الحديث، تحرّض شهيتها بهمس يَسمعه هذان المزدوجان: "أعتقد أن الأسلوب الذي يَنفذ إلى القلب هو سُلطة جميلة، ومن له موهبة القصّ، إضافة إلى الأسلوب الجيد لهو ساحر بحقّ".

منى الشافعي
و«المدينة التي كانت بالأمس»

نذير جعفر *

انتبه د. سليمان الشطي، منذ أوائل تسعينيات القرن الماضي، إلى موهبة منى الشافعي، وتوقّع أن يكون لها صوتها الإبداعي الجديد، فقال: «برزت أسماء بدأت تبشّر بميلاد نوعية جديدة من الإبداع القصصي، لم تتضح معالمه بعد، لكنه يمثّل بداية لجديد قادم، مثل: ناصر الظفيري، ومنى الشافعي، وريم الرفاعي، وحمد الحمد، وغيرهم» (1).

وقد صدق حدس د. الشّطي، حيث تابع هؤلاء رحلتهم الإبداعية التي تحمل تفرّدها وخصوصيتها في مسار التجربة القصصية بالكويت، وصدر لكلٍّ منهم فيما بعد عدد من الروايات والمجموعات القصصية التي تؤكد أصالة موهبتهم وصحّة اختيارهم لهذا الفن في التعبير عن هواجسهم ورؤيتهم للحياة، ومنهم الشافعي التي صدرت لها روايتان هما "يطالبني بالرقصة كاملة" (2012)، و"ليلة الجنون" (2013).

كما صدرت لها 7 مجموعات قصصية هي: "النخلة ورائحة الهيل" (1992)، "البدء.. مرتين" (1994)، "دراما الحواس" (1995)، "أشياء غريبة تحدث" (2002)، "نبضات أنثى" (2005)، "بعضاً من حياة" (2010)، "بالأمس كانت مدينة" (2021)، التي سنتوقف عندها في هذه القراءة النقدية.

تتضمن مجموعة "بالأمس كانت مدينة" (2) خمس عشرة قصة قصيرة، تستلهم فيها الكاتبة تجربتها الذاتية الخاصة وتجارب الآخرين مِنْ حولِها، عبر نزعة إنسانيّة عميقة تركّز على ما هو جوهري في النفس من مواقف ورغبات وصراعات وانفعالات وجدانية، وتتوزّع على أربعة محاور رئيسة: النوستالوجيا، الحرب، العمالة الوافدة، العلاقات العاطفية وتداعياتها.

1 - النوستالوجيا (الحنين إلى الكويت القديمة)

يحضر بحر الكويت بسحره وشاطئه الذهبي الآسر وبالأمكنة المطلّة عليه، بوصفه مهوى الأفئدة وقِبلتها المسائية، كما في قصّة "أثقلني السكوت"، وتحضر السّدرة وثمار الكنار، وشجرة الزيتون، وخبز التّنور الذي تعدّه الأم فجراً في قصّة السّدرة.

إلا أنّ الحضور الواسع المُشبع بنزعة الحنين إلى الكويت القديمة يتجلّى على نحوٍ خاص في قصّة "بيتي العتيق... رائحة أمي"، ففي هذه القصّة التي تُروى بصيغة ضمير المتكلّم يُوهم فيها السرد بتطابق أو بتماهي صوت الراوية في النّص بصوت المؤلفة الحقيقيّة في الواقع، كما يوهم بواقعية التجربة، وحقيقية الشخصيّات، فتبدو الكاتبة الشافعي شخصيّة

مركزية فيها، تستعيد عبر الذكريات صورة بيت العائلة القديم في فريج شرق الذي لا يبعد عن البحر سوى بضع خطوات، وتشمُّ رائحة هواء الفريج الذي احتضنها طفلة مقترنة برائحة الأبواب والشبابيك الخشبية والجدران والمسجد الصغير والأم الحبيبة والبساط الأحمر الذي كانت تفترشه بأرض الحوش في المساءات الجميلة، وماكينة الخياطة التي كانت تعمل عليها.

قصة «بيتي العتيق.. رائحة أمي» تجسيد فني حي ورفيع المستوى لنزعة النوستالوجيا في الأدب التي تكاد تكون سمة جوهرية في كثير من الأعمال القصصية والروائية الخالدة في الأدبين العربي والعالمي.

2 - الحرب في دول الجوار

«بالأمس كانت مدينة»، هو العنوان الذي اختارته الكاتبة لمجموعتها القصصية، وهو نفسه عنوان إحدى قصص هذه المجموعة، وذلك يشير إلى أهميتها لدى الكاتبة من جهة، وعمق دلالتها من جهة ثانية. ومن جهة ثالثة، فإنّ السؤال الذي يثيره العنوان للوهلة الأولى لدى المتلقي هو: كيف كانت تلك المدينة بالأمس؟ وما الذي أصبحت عليه اليوم؟

فمدينة الموصل العراقية المسماة أمُّ الربيعين لطقسها المعتدل وخضرتها الدائمة، والتي كانت تنعم في الأمس بالسلام والأمان والمحبة والتآلف بين كل مكوّناتها من عرب مسلمين ومسيحيين وآشوريين ومندائيين وأكراد، أضحت في الحرب التي اشتعلت فيها مدينة الموت التي تنعق على أسطح بيوتها الغربان!

تُرْوَى القصة بضمير المتكلّم أيضا على لسان الشابّة ميّ، ابنة الأسرة المسيحية، مما يمنحها المصداقيّة وقوة التأثير في القرّاء؛ فالحرب أودت بحياة أمها المصابة بالسكّري وجدّها العاجز وأخيها نديم المصاب بالربو وحبيبها جوزيف، الذي قضى نحبه تحت القصف.

وما إن تأتي الموافقة على هجرة الأسرة إلى السويد بعد موت الأم والجد والأخ والحبيب، حتى تقرر مي البقاء وعدم الهجرة، مردّدةً في أعماقها قول ماركيز: «لا ينتسب الإنسان إلى أرض لا موتى له تحت ترابها». لقد مات أفراد أسرتها جميعهم وبقيت وحدها حارسة الخراب وقبور الموتى الذي قضوا ظلماً في حرب ليست حربها ولا يد لها فيها أو مصلحة، وتلك هي مأساتها ومأساة العراقيين الذين قتلوا في الحرب بين "داعش" والدولة.

ولا تخلو قصّة «على قارعة الحلم» من الإشارة إلى الحرب في بلد عربي، ربما كان لبنان من بعض القرائن الدالة على طبيعته. فاللقاء بالمصادفة بين شابة اسمها قمر واللواء رامي وهبي، وحالة الحب التي تلبّست قمر بعد هذا اللقاء، والمشوار في الشارع، والجلسة على الرصيف، ثم في المطعم العتيق الذي تديره أم وردة، والنهاية السريعة لهذا اللقاء الحميم بسبب التحاق اللواء بمهمته العسكرية، كل ذلك يؤكد أن الحب قد يولد في الحرب، لكن الحرب تقف حاجزا أمام استمراره.

3 - العمالة الوافدة

شغلت قضايا العمالة الوافدة معظم أدباء الكويت، وكلٌّ منهم تناولها من زاوية معيّنة، فلهذه العمالة مشكلاتها الجمّة وآثارها السلبية المتعدّدة ومظالمها أيضاً، ولعل هذا ما يسوّغ الاهتمام بها لدى الشافعي في أربع قصص قصيرة من مجموعتها "بالأمس كانت مدينة"، وهي على التوالي: أثقلني السكوت، تشتبك العيون بالدهشة، مع كأس شاي، السّدرة.

في «أثقلني السكوت» تسرد الكاتبة بضمير المتكلم بوصفها الشاهدة على ما رأته بأم عينها في أحد الحمّامات على الشاطئ، ودعاها إلى السكوت المصحوب بخروج دمعة حبيسة. فالعاملة الآسيوية - كما تشي ملامحها ولهجتها - قد أغلقت أحد الحمّامات بذريعة عدم صلاحيته، لكن الشكّ الذي راود الشاهدة جعلها تصرُّ على فتح الحمّام الذي رأت فيه «وجه طفل رقيق بريء نائم كالملاك، لم يتجاوز الشهرين من عمره، ملفوفا ببطانية قديمة»، فعرفت أنه مولود غير شرعي للعاملة التي اضطرت لإخفائه في هذا الحمّام.

وفي قصة: «تشتبك العيون بالدهشة» تصوير مؤثر ووصف دقيق لخمسة أشخاص نساء ورجال من العمالتين المصرية والآسيوية يعملون في (مكان كئيب) داخل سرداب (شاحب عتيق) في ورشة خياطة غير مرخّصة، وينتظرون رواتبهم ليحلّوا مشكلاتهم. لكنهم يفاجأون بمفتشي البلدية الذين يغلقون المحل ويأخذون بطاقاتهم المدنية لتسوية أوضاعهم وتسفيرهم.

أمّا في قصة «مع كأس شاي»، فتتخذ الكاتبة من السرد بضمير المُخَاطَب-second person narrative أسلوباً للغوص في أعماق الشخصية، حيث يكون المروي له بطل القصة الذي يُرى العالم من بؤرته، وتوهم هذه الصيغة السردية بتبادل الأدوار، وبالتطابق بين المؤلف والبطل والقارئ من جهة، والراوي والمَروي له من جهة ثانية.

وغالبا ما تُحوِّل زمن السرد إلى المضارع أو المستقبل، وهي صيغة ملتبسة، تشيع نغمة شاعرية، متشكّكة، منطوية على تساؤل، أو اعتراف، أو لوم، أو اعتذار؛ نغمة ذات كثافة عاطفية وانفعالية تشي بمرارة كامنة وراءها (3).

وبذلك تأتي هذه الصيغة السردية متناغمة مع مضمون القصة الذي يتمحور حول المهندس الزراعي الذي يعمل على بسطة خضار في سوق المباركية، واتخاذه قرار العودة إلى بلده خلال جلسة مع صديقه عامل التنظيفات متولّي، لأن عمله يتناقض مع شهادته كليًا ويُشعره بغربة مضاعفة.

في قصة «السّدرة»، وهي الرابعة من هذا المحور، موقف إنساني وترميز شفاف يجمع بين عامل التنظيفات الذي يتخذ من السدّرة وظلها مكاناً لاستراحته، وطالب "الثانوية" الذي يقدم له الطعام يوميًا. ويأتي موت عامل التنظيفات ليشكّل صدمة للطالب الذي اعتاد رؤيته كل يوم.

أما قصة "تجمّدت الدمعة في عينيّ"، فتنتهي فيها خدمة العاملة أم مديحة، وتذهب إلى الإدارة لتتسلم شيك تعويض نهاية خدمتها من مسؤول الخدمات العامة، واعدة ابنتها مديحة وابنها شوقي بتأمين طلباتهما، لكنها تضيّع الشيك بعد تسلمها له، وبضياعه يتبخر وعدها لابنها وابنتها.

تكشف قصص العمالة الوافدة عن نزعة إنسانية وأخلاقية عالية لدى كثير من المواطنين تجاه هذه العمالة التي تعاني شروطا قاسية في عملها بحكم الشركات التي تستقدمها وتفرض شروطها عليها.

4 - العلاقات العاطفية وتداعياتها

يشتمل هذا المحور على خمس قصص، هي تفاصيل، نصف إغماضة، إني أنطفئ، لذة الاكتشاف، دائرة ملتهبة.

في قصة «تفاصيل» تتحول الوردة إلى رسول مصالحة بين الزوجين، وبعد تصالحهما تذبل! هذا الذبول الترميزي قد يكون دلالة على التضحية من أجل إحلال الوفاق بين المتخاصمين.

وفي قصة «نصف إغماضة»، تقف لفافة التبغ حاجزاً نفسيّاً بين الرجل والمرأة التي يحبها، وفي النهاية يبقى مع لفافته وترحل الحبيبة!

وتأتي قصة: «إني أنطفئ» لتسلّط الضوء على حيرة الشابة في اختيار أحد اثنين ممن تحب: صالح أم مرزوق؟ في قصة لذة الاكتشاف يندفع الشاب لخطبة ابنة عمته سارة مستأنسا بحالة الحب والوفاق بين أمه وأبيه. وفي القصة الأخيرة من هذا المحور: «دائرة ملتهبة» تنتظر الشابة حبيبها العائد من الدراسة، لكنها تفاجأ في المطار بالشابة التي ترافقه يداً بيد، فتبتعد عن هذه الدائرة الملتهبة.

تلك قراءة لمضامين ودلالات مجموعة: «بالأمس كانت مدينة»، مع التركيز على بعض أشكال حضور الراوي في السرد، وهي تشير إلى المستوى الفني الرفيع الذي وصلت إليه الكاتبة سرداً ولغةً وتقنيات فنيّة.

* كاتب وناقد سوري

****

الهوامش:

1 - الشطي، د. سليمان: "مدخل القصة القصيرة في الكويت" (ص 157).

2 - الشافعي، منى: "بالأمس كانت مدينة، ط1 دار الفراشة للنشر والتوزيع، الكويت 2021.

3 - دومة، خيري: «صعود ضمير المخاطب في السرد المصري المعاصر»، مجلة بلاغات المغربية، العدد الأول، شتاء 2009، (ص 66. 95).

قراءة في «إضاءات العتمة الأخيرة»

التكثيف وتوتّر الحدث.. بين الألق والعدم!

حسام القاضي

قرأت أخيرا المجموعة القصصية «إضاءات العتمة الأخيرة» للأديبة تسنيم الحبيب، والتي تضم أكثر من عشرين قصة، وحسب ترتيب نشرها تتدرج من قصص قصيرة واضحة لا تحتاج إلى تأويل، ثم قصص قصيرة أقل مساحة وأكثر اختزالاً وأقل وضوحاً، أو لنقُل غامضة أحيانا «بدءا من «ب.. مرايا»، حتى نصل إلى قصص قصيرة جدا، وأشد غموضا، ولا أدري أكانت القاصة تتعمد هذا الترتيب التدريجي . وكأنه ترتيب لتطوّر القصة القصيرة . أم لا؟

تمتاز القصص جميعها بأكثر من ملمح، فهي كلها تُروى على لسان بطل القصة أو «الراوي المشارك»، أي بضمير «أنا»، لا كما تعودنا في الغالب على الراوي العليم الذي يروي بضمير الغائب «هو أو هي أو هم.. إلخ».

وللحكي بلسان البطل ميزة كبيرة، إذ تبوح الشخصيات بمكنونات أنفسها دون تدخّل خارجي من الكاتب الذي يختفي تماما من الصورة، ويتركنا أمام شخصياته، وهذا أوقع وأصدق، ولكنه يعتمد على مدى إجادة الكاتبة لتقمّص شخصياتها لتتحدث بلسانهم هم لا بلسانها هي، والحقيقة أنها أتقنت هذا بالفعل.

والكاتبة هنا لا تلجأ لبعض الأساليب التقليدية لبداية القصص، إذ تبدأها بدخول مباشر للحدث دون مقدمات، ويرى كثير من الكتّاب في هذا ميزة، إذ يقول يحيى حقي وغيره إن «القصة الجيدة هي قصة ذات مقدمة محذوفة»، وأود أن أضيف وأقول ربما مقدمة مؤجلة لما بعد، فهذه المقدمة يمكن نثرها في أرجاء القصة على شكل إضاءات تمكّن القارئ من معرفة ما قد حدث من قبل.

وهي لا تبدأ قصصها بالترتيب المنطقي الزمني للأحداث، بل تلجأ إلى اختيار منطقة ساخنة في القصة أو منطقة متوترة لبدء القصة لتجذب القارئ للمتابعة.. نقطة تجعلها متكأً لها، تعود منها للماضي عن طريق الـ «فلاش باك» أو الاسترجاع الزمني، ثم ترتد للحاضر، وهكذا تصل إلى النهاية، وهنا تكون قد أضاءت الماضي بالكامل مع تقدّم الحاضر حتى نصل إلى النهاية ولحظة التنوير.

المضمون بالتأكيد مهم، لكن الأهم منه . من وجهة نظري المتواضعة . طريقة المعالجة، فكما يقال فإن «الأفكار ملقاة على قارعة الطريق»، ولكن من هو المقتنص الذي يقتنص ويرى من زاوية مختلفة، وتكون له معالجته الخاصة؟ فالقاص المميز ليس مجرد عين كاميرا ترقب وتنقل ما تراه فحسب، بل هو فنان يعيد صياغة الواقع في شكل قصة أدبية، وهذا ما تحقق هنا في قصص المجموعة

منذ بدايتها، حيث قصة عبير، المريضة بالسرطان في صراعها مع المرض بشكل غير تقليدي، وكذلك محمود الذي يعمل طباعاً في المكتبة، ومن بعده عامل المطعم، وغيرهما، تعددت فيها الشخصيات والأفكار وتعددت معهما المعالجات وتقنيات السرد، وذلك مع لغة ثرية مناسبة، وهذا ليس بمستغرب من قاصة موهوبة وخبيرة تمتلك أدواتها، مثل تسنيم.

ولا يمكن الحديث عن هذه المجموعة الثرية في عجالة هكذا، فهي تحتاج إلى الوقوف عندها طويلا بالقراءة والتحليل والنقد (من النقاد والمختصين)، ولكن المجال لا يتسع لهذا، لذا رأيت أن ألفت سريعا إلى ما أشرت إليه، مع تركيزي على قصة رأيت فيها أهم سمات المجموعة، وهي من الشطر الآخر منها، والمقصود بها الأقل مساحة والأكثر اختزالا، مع إغفال الكثير من التفاصيل التي لا تجد لها الكاتبة أهمية؛ فهي هنا تقفز على التفاصيل عبر إضاءات قصيرة متتالية، لتصل بنا إلى ما تريد وكأنها تقول هذا هو الأهم، وبرغم اتفاقي معها على هذا، فإنني قد أختلف معها حول بعض التفاصيل التي احتاجتها قصص ما لجعلها أقل إبهاما (بالنسبة لي)، والقصة المختارة هنا هي قصة خيوط، فهي تعالج مشكلة المواطنة، أو لنقل صراحة مشكلة الـ «بدون»، وفيها معالجة مبتكرة وشديدة الحساسية، فهل ذكرت فيها الكلمة المعنية مباشرة؟ لا بل كانت هكذا:

«أربعون سنة، شطرتني شطرين، متساويين تماما، عشرون في العدم، وعشرون في ألق المواطنة، الخيط الذي ربطني بعيسى، زوجا وانتماء، لأصير اليوم وحدي حاملة الجواز الأزرق في بيتنا المخذول..».

العدم؟!! أي شعور هذا وهي تعترض على زواج شقيقتها ممن تحب وتراه مناسبا لها، وهو من نفس الفئة «وتطلب خيرية اليوم أن تقترن بعبدالهادي؟ لماذا؟ لتخيط بيدها خطوط المتاهة.. وعمرا آخر؟».. العدم والمتاهة؟ أي اختزال هذا لمشكلة المشاكل؟!

ولكن القصة لا تبدأ هكذا، بل:

«فيا لله وأملك! ذاك الذي لا ينكسر، يمتد كصفحة فسيحة، كديمة، كنجمة عنيدة في ليلة شتوية.. أنت أيها المترفع على صفة الخذلان، يا عاشق الضوء رغم غبش العينين اللتين تندحهما في كل يوم قطرتين كفاحا، يا ذا الساعد الشديد الذي لم تبهظه حقنة السكر وهي تُغرس في لحمه»

بداية مبهمة لا تفسح عن شيء محدد وحتى ما بعدها لا ينير طريق القارئ حتى نصل إلى:

«وتعاود طلب كل مرة:.. افتحي الإذاعة.. لكني، لا أنصاع مثل كل مرة»!

فما هو الطلب الغريب الذي يطلبه الأب من ابنته، في نفس الموعد سنويا كما يبدو فيما بعد وتأباه هي دائما، ولِمَ؟

تتركنا الكاتبة في حيرتنا ثم تأخذنا عبر إضاءات خافتة فجأة إلى عمق الموضوع.. العدم والمتاهة، وهنا نبدأ في إدراك المأساة، ونجد هذا الشيخ في عمقها، ولكن بلا شكوى منه، وهو فيما يبدو راضٍ كل الرضا، ونظل نحن في تلك المتاهة حتى تلقي الكاتبة بالقنبلة.. لحظة الكشف أو التنوير:

«أو تدرك العلة؟ أظنها غابت عنك، كما غيّبت أنت حقيقة الواقع مُختاراً يا أبي، وظننت أن متجرك في سوق الديرة، وصحبك ومحبة الناس وحمدهم إياك يعني أن الأمور بخير، لا يا أبي، لستَ بخير، ولست ممن سيذكر اليوم في البرنامج الإذاعي الذي يتحدث عن وقفات مشرفة للمواطنين، ولن يتطرّق المذيع الموهوب إلى موقفك الشجاع حين آويت في دارك بعض شباب المقاومة وعرّضت أمي للهلع، لن يحدث ذلك يا أبي، ولن يجدي أن أقول لك كم أنا مبهورة بأملك، ولم أنصع كما كل مرة، ولن أفتح الإذاعة».

كم هو مؤلم أن يضيع عمر أحدهم في انتظار أن ينال الـ «ألق».. حتى ولو لم يصرح بذلك، ولكن الأشد إيلاما أن يعيش عقودا ينتظر أن يسمع كلمة عرفان.. فقط كلمة عرفان قد لا تأتي أبدا.

القصة رائعة ذات عنوان لافت معبّر عن القصة غير كاشف لها «خيوط».. خيوط تشد إلى «الألق» وأخرى تجرّ إلى المتاهة والعدم!

* كاتب وناقد مصري

رواية «ذات يوم» نموذجاً

بلاغة السرد أم سحر الصورة؟!

سوزان خواتمي *

تتعارض الآراء وتختلف حول أهمية تحويل النصوص الأدبية إلى أعمال درامية، ويبقى تفضيلك الشخصي لوسيلة التلقي هو الحكَم الفاصل، فهناك من يجد لغة الكاميرا أقوى تأثيراً وأكثر رسوخاً في الذاكرة، فيما يرى هواة الكلمات أن الكتب المقروءة أكثر إمتاعاً وتحريضاً على الخيال، فماذا عن الأدباء وصنّاع الدراما؟!

يتخوف بعض الأدباء من أثر المعالجة الدرامية التي قد تسيء إلى المضامين الفلسفية والفكرية لنصوصهم، الأمر الذي جعل الروائي ميلان كونديرا يُجري بنفسه تعديلات على سيناريو روايته "كائن لا تحتمل خفته" عندما تم تحويلها إلى فيلم يحمل الاسم ذاته.

على الجهة الأخرى، هناك من يترك للمخرج وكاتب السيناريو الحرية الكاملة، باعتبار أن للعمل الدرامي سماته الخاصة، وهو رأي للروائي إبراهيم عبدالمجيد، عبّر عنه في ندوة أقيمت على هامش معرض أبوظبي الدولي، ونشرتها جريدة اليوم السابع، مضيفاً أن "تحفظات الكاتب تصبح سبباً لعدم إقبال المنتجين على شراء حقوق الأعمال الأدبية، كما حدث مع أعمال الكاتب يوسف إدريس".

وبطبيعة الحال، تحظى الأعمال الدرامية المأخوذة عن روايات بانتشار جماهيري، فأعمال نجيب محفوظ، رغم أنها مقروءة ومتداولة على نطاق الوطن العربي، فإن النجاح الذي حققته كأفلام ومسلسلات صنع ثقافة شاملة ومؤثرة يصعب تجاهلها.

وأياً كان رأينا في السرد أو في الصورة، إلّا أن العمل يكون ناجحاً من خلال قدرته على التأثير والمتعة؛ سواء كان عملاً بصرياً أو كتاباً مقروءاً!

رواية ذات يوم

قرأت أخيراً رواية "ذات يوم" للكاتب الإنكليزي ديفيد نيكولاس، الصادرة عن "الدار العربية للعلوم ناشرون"، وبالرغم من العنوان السيئ - من وجهة نظري - وأن الرواية صدرت مترجمة عام 2012، أي أنها قديمة بالفعل، فإنّ متعة قراءتها ومتابعة الأحداث حتى الصفحة الأخيرة كانتا جديرتين بأن أقرر الكتابة عنها.

يُصنف العمل بأنه ذو طابع رومانسي، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن الجدوى من قراءة قصة حب تتكرر بغوايتها وانكساراتها، لتضاف إلى آلاف الأعمال بذات الموضوع!

ما الجديد الذي يمكن أن يضاف إلى ما قاله غابرييل في روايته "حب في زمن الكوليرا"، أو في رواية آنا كارينينا لتولستوي، أو رواية أحدب نوتردام لفيكتور هيغو، أو سقف الكفاية لمحمد حسن علوان؟ ألم يُشبع موضوع الحب بحثاً وقصّاً وشعراً ورواية حتى الإنهاك؟!

الحقيقة أن الأدباء لا يخترعون الذرّة، هم يلامسون تجارب الحياة الإنسانية، وسواء كان الكاتب يطرح بُعداً سياسياً أو تاريخياً أو اجتماعياً أو حتى خيالاً علمياً، غير أن ثلاثية الحب والموت والألم لا تفنى، بل تتكرر وتتكرر، ويبقى الأسلوب وعنصر المفاجأة والحبكة المبتكرة هي الضمانات الوافية للمتعة وعمق الأثر وعدم الملل.

لا يُمل.!

اعتمد نيكولاس في أسلوبه على خليط ساحر مزج فيه السخرية والرومانسية والدفق اللغوي، فأظهر براعة في وصف مشاعر متناقضة، والتباسات في المواقف جعلتني كقارئة أتنقل بين الحزن والانكسار والأمل والضحك.

تدور الرواية حول علاقة ملتبسة تستمر لعشرين عاماً، وتنطلق البداية من لحظة لقاء الشخصيتين المحوريتين، إيما مورالي ودكستر ميهو، في حفل تخرّجهما بأدنبرة عام 1988 لقاء المفترض به أن يكون عابراً بين خريجين من عرقين وثقافتين مختلفتين سينطلقان كل في طريقه إلى الحياة العملية، إيما الذكية الطموحة الخفيفة الظل ذات القلب الأمومي المنغمسة بفكرة العدالة الاجتماعية والفنون والمسرح، ودكستر الجذاب الثري الأناني المتعدد العلاقات، والذي ينتهي سقف طموحه عند الشهرة والثراء والانغماس في حياة المترفين.

ربما بسبب انجذاب الأضداد، أو بسبب بذرة كامنة في داخل كل منهما؛ تنوس علاقتهما بين الصداقة والاهتمام واللوم والقطيعة، ومن ثم الاستسلام للحب، وأخيراً قرار الزواج، نهاية سعيدة لمشاعر بقيت غير مؤطرة طوال حقبتين من الزمن، حافظ خلالهما كلاهما على رسائل مطولة، وموعد لقاء سنوي يتكرر بتاريخ 15 يوليو، اليوم المعروف باسم القديس سان سويذن، ليكون تجديداً وتحدياً للاستمرار، وعنواناً لفصول الرواية، وأيضاً موعداً أخيراً مع موت مفاجئ التحقت به إيما، الموت الذي لا يترك للأشياء الجميلة أن تستمر. تكتب إيما في مفكرتها:

"إنه يوم يختبئ بمكر غير مرئي بين كل أيام السنة الأخرى، لا علامة له أو صوت حين تتخطاه سنوياً، لكنه موجود هناك بالتأكيد، متى سيحين؟" (ص 365).

من الكتاب إلى الشاشة

وبعد أيام قليلة من قراءة الرواية، ظهر لي على منصة نتفلكس مسلسل "ذات يوم"، فوجئت بأنه مأخوذ عن العمل الذي أنهيته للتوّ.

تابعت 12 حلقة من المتعة البصرية، والقدرة الإخراجية على الاحتفاظ بأمانة النص وسياقاته وحواراته، إلى درجة أن بعض المشاهد التبست عليّ، هل كان خيالي الذي صنع مشهداً مطابقاً، أم أنني رأيت هذا المسلسل من قبل؟!

لحسن الحظ، أضافت الكاميرا السينمائية لمساتها الخاصة على المشاهد المختزلة في ذاكرتي، فكانت بارعة في نقل التفاصيل الثقافية والبصرية لحقبتَي الثمانينيات والتسعينيات، الموسيقا، والأزقة، والأزياء، بيوت الأحياء الفقيرة، جرف سالزبوري، تلة آرثر، مقاهي باريس.

حين نأخذ بعين الاعتبار أداء الممثلة آمبيكا مود ذات الأصول الهندية بملامحها المعبّرة لتقلب المشاعر بعبثية اللحظة والأخرى، وأن "نتفلكس" كجهة إنتاجية رحمتنا من ترويجها المعتاد للمثلية الجنسية، يصبح المسلسل آسراً، بل ويجعلك تتقشف في مشاهدته كي لا ينتهي.

كثيرة هي الأعمال الأدبية المنقولة إلى السينما، مثل رواية العطر، وآنا كرنينا، والحب في زمن الكوليرا، وزوربا... القائمة لا تنتهي، ومع ذلك؛ لأنني عاشقة للكلمات، دائماً ما كانت قراءة الكتاب بالنسبة لي أكثر متعة ورهافة.

* روائية سورية

ماراثون الشعر العربي... في مسيرة نزار قباني (2)

د. نزار خليل العاني

من المعاد والمستعاد حول قضية الحداثة الشعرية العربية أن الاختلاف على الريادة لم يُحسم، ولن يحسم. ولا أجد أنا شخصياً أن الحسم لهذه الأهمية التي تستحق كل النقاش الذي دار منذ خمسينيات القرن الماضي وحتى الآن، ومن تحصيل الحاصل أن تخضع الفنون، والشعر أحدها، لمنطق التطور الحتمي، وهذه الحتمية تجعل من الريادة مسألة تتعلق بالتأريخ والزمان، وخصوصاً عند العرب المبهورين بمسألة (الأوائل) وتقديسهم!

ومهما يكن توقيت انطلاق الحداثة بقصيدة "الكوليرا" لنازك الملائكة، أو فرضيات الكتابة تحت تصنيف (النثر الفني) لجبران خليل جبران وأمين الريحاني وغيرهما، أو جماعة أبوللو في مصر، وجماعة مجلة شعر في لبنان، أو قصيدة التفعيلة التي تُعزى لبدر شاكر السياب وغيره، فمما لا يمكن إغفاله أبداً، أن لنزار قباني شراكةً في إنجاز حتمية التحديث والتجديد، إن على مستوى الشكل الذي كسر قواعد القصيدة العمودية، أو البنية والمضمون.

وشاع في موجة التوصيف لقصيدة الحداثة عند كثير من الشعراء الذين أسهموا في التأسيس لمعالمها بعض السمات، ومنهم أدونيس والبياتي وعبدالصبور وخليل حاوي، ومن تلك السمات لمجموعة من النقاد: توظيف الأسطورة والرمز، والبعد عن البلاغة التقليدية، والاستعاضة عن البنى الإيقاعية، والغموض، واستبعد هؤلاء النقاد شعر نزار قباني من هذا التنميط، في حين يرى آخرون أن شعره يشكّل نموذجا من الحداثة مختلفا عن النماذج المذكورة، ولكن لا يقل عنها أهمية (1).

رحلة الشعر العربي كانت طويلة ومرهقة ومتشابكة، ولم يتفق النقاد على المصطلحات والتسميات التي وصل إليها الشعر الحر أو قصيدة النثر وما يتفرع عن هذين من فوضى التسميات، ووصل الأمر إلى الاختلاف في تعريف ماهية الشعر، والشكوك حول هوية قصيدة الحداثة، وفي هامش اليقين المتبقي في حومة الجدل، يبقى شعر قباني يملك الأهلية الكاملة لحمل تسمية منصفة لديوان الشعر العربي المعاصر.

كتاب "نزار قباني... شاعر لكل الأجيال"

يقال إن الشاعر الذي حظي بأغزر الكتابات في تاريخ الأدب العالمي، هو الشاعر وليم شكسبير، ويشهد بيته في ستراتفورد، الذي أصبح محجّاً

للسياح، على ذلك.

وفي تقديري أن وصف "ابن رشيق" للمتنبي بأنه "مالئ الدنيا وشاغل الناس" ينطبق باعتراف الكثيرين من النقاد والدارسين على قباني في عصرنا، وكما قالت د. سعاد الصباح عنه في مطلع المجلد الأول للكتاب: نزار قباني، كان خلاصة أيامنا، هو مثل أبي الطيب المتنبي، ملأ الدنيا وشغل الناس، ولا يزال.. إنه شاعر كل الفصول.. منذ بداياته قرر أن يؤمّم الشعر، ويجعله خبزاً للجميع.. استطاع أن يصنع من الشعر عباءة من القصب، ومنذ خمسين عاماً ونحن نلبس لغته الجميلة، ونكتسي بحرير مفرداته (2).

صدر الكتاب بتاريخ 21 مارس 1998 بمناسبة اليوبيل الذهبي لحضور الشاعر بيننا، في مجلدين أنيقين جداً وطباعة راقية على مطابع دار صادر التي أسست سنة 1863 في بيروت التي أحبها الشاعر وعاش فترة زمنية فيها، وظهر الكتاب بحلّةٍ زاهية قلَّ نظيرها في المكتبة العربية، ووصله إلى لندن وهو على سرير المرض، قبل وفاته بحوالي أربعين يوماً (توفي بتاريخ 30 أبريل 1998).

لقد غسل الكتاب الثمين، وهو في حضنه، كل أحزانه الجوانية، وقلقه الوجودي الخفي، وأشرقت عيناه بوميض الرضا والقناعة والعرفان لصاحبة المشروع، كما اعترف هو لمدير عام "الدار" على الهاتف في صبيحة وصول الكتاب الذهبي ووقوعه بين يديه.

غلاف الكتاب، وبعد العنوان الرئيس، يحمل التأشيرات الفرعية التالية: بإشراف د. سعاد محمد الصباح، إعداد وتحرير د. محمد يوسف نجم، المدير التنفيذي محمد خالد طاهر القطمة.

وعلى الصفحة 3، اللجنة الاستشارية، د. محمد يوسف نجم.. د. سهيل إدريس.. د. محيي الدين صبحي.

والكتاب، كما ذكرت آنفاً، يتألف من مجلدين، عدد صفحات الأول 546 صفحة من القطع الكبير، وعدد صفحات المجلد الثاني من 547 إلى 1122 صفحة، وبلغ العدد الكلي للمساهمين والمشاركين في الكتابة 73 مساهماً، والمساهمة الرابعة والسبعين كانت د. سعاد الصباح، التي وجّهت هذه الكلمات للشاعر نزار قباني وللمساهمين: "شكراً لكل الأصدقاء من الشعراء، والأساتذة، والباحثين، والمثقفين الذين كتبوا أعمق الدراسات وأجمل الشهادات في هذا الكتاب الوثائقي الذي سيصدر في ذكرى يوبيلك الذهبي" (3).

وأمام هذا الكم الهائل من المساهمين وكتاباتهم، استطاع المُعِد والمحرر د. محمد يوسف نجم أن ينسّق ويرتب ويفرز ويقسم ويُبوّب مواد الكتاب إلى فصول وأجزاء فصول مرقمة، تسمح للقارئ - عَبْرَ الفهرس - أن يعثر على المعلومة التي تهمّه في كل جزئيات مسيرة نزار الشخصية والفنية والنقدية والشعرية بيُسرٍ وسهولة.

الفصل الأول (أ)، الصغير مثلاً حمل العنوان "في الشام أهلي" ويتضمن فقرتين (1 و2) وفيه السيرة الذاتية للشاعر، وذكر بعض الكتب التي تناولت

أدبه، والترجمات والأوسمة، وفيه أيضا كلمة شقيقه صباح (أخي نزار) التي قال فيها: تكريمك اليوم إنّما هو تكريمٌ لمجد الشعر، وكلمة ابنته هدباء قباني، وقالت فيها عنه: ليس لديه مصادفات في الكتابة ولا ارتجالات في قول الشعر، فحركة الشعر عنده تخضع لنظام دقيق سرمدي.. هو مؤمن أن الشعر مطرٌ يجود به الله على النخبة الموهوبة من عباده.

والفصل الثاني (II) الطويل نسبياً، ويتضمن الفقرات من (3 إلى 24)، ويحمل عنوان "في مرايا النقاد"، وكل فقرة منسوبة لناقد ولعنوان دراسته، إذ تشير الفقرة 3، على سبيل المثال، إلى شوقي بزيع وعنوان دراسته "احتفالية الجسد وشاعريّة الحواس".

وهكذا تتوالى أسماء النُّقّاد والأساتذة الأفاضل، ومنهم، مع الاعتذار من عدم ذكر أسمائهم جميعاً: جبرا إبراهيم جبرا، سلمى الجيوسي، حسام الخطيب، شربل داغر، فيصل دراج، شكري عيّاد، صلاح فضل، عبدالقادر القط، عبدالسلام المسدي، عبدالعزيز المقالح، وغيرهم، وعناوين دراسات تغطي كل الأسئلة المتعلقة بمقاربات نقد الشعر، الفنية منها واللغوية والفكرية والموضوعية.

أما الفصل الثالث (III) فيندرج تحت موضوعين اثنين؛ يتناول الأول منهما وعنوانه "عذوبة النغم في روعة الشعر... الأغنية في شعر نزار"، بالترقيم المتسلسل العام 25 و26، ويكتبهما فكتور سحّاب وكمال النجمي.

والثاني "شهادات أهل الصناعة"، بالترقيم العام من 27 إلى 34، ويتناول آراء الموسيقار محمد عبدالوهاب مستلّة من كتاب عنه ومن أوراقه، ونجاة الصغيرة وماجدة الخوري وحلمي بكر.

ويسعى الفصل الرابع (IV) وعنوانه "عطر الأصدقاء" لاستكمال الترقيم من 35 إلى 72 ولتوثيق شهادات أدباء وشعراء ومثقفين بما عرفوه أو لمسوه خلال معايشتهم لشاعرنا الكبير، وترويسة الشهادات تحمل عناوين بدلالات صريحة تنمّ عن الإكبار والتقدير.

ومن هؤلاء سهيل إدريس، وأنسي الحاج، وسيف الرحبي، وياسين رفاعية، وغادة السمان، وفاروق شوشة، وعبدالسلام العجيلي، وسمير عطا الله، ومدحت عكاش، وسليمان العيسى، وغازي القصيبي، وأحلام مستغانمي، وشاكر مصطفى، وعبدالرحمن منيف، وسعدي يوسف، وبيان مجلس أمناء مؤسسة سلطان العويس الثقافية بشأن مسوغات منح جائزة الإنجاز للشاعر موضع التكريم وآخرين.

وفي كل شهادة وسام لهذا الفارس اللغوي وهو يرمح ببارق الجمال والسحر فوق السجادة الحمراء الأدبية الممتدة من امرئ القيس إلى محمود درويش.

وكان الفصل الخامس (V) وعنوانه "صدى السنين" مسك الختام، ويضم 86 صورة للشاعر مع شخصيات أدبية وسياسية مشهورة، حيث يظهر في صورتين نادرتين مع الشيخ عبدالله مبارك والشاعرة سعاد الصباح في بيتهما، ومع الأخيرة وهي تلقي قصائدها، من أرشيف نزار قباني الشخصي، وكلام الصور بقلمه.

وكانت الخاتمة بكلمة د. محمد يوسف نجم، وهي الثالثة والسبعين بين الكلمات والشهادات، ويعترف فيها متسائلاً: وبعد؛ هل أبقى النقاد الأفذاذ الذين تناولوا شعر نزار في هذا الكتاب، أو فيما كتبوه عنه في دفاترهم وصحفهم زاوية أتسلل منها إلى شعره لأقول فيها كلمة حق في شاعر العصر ترضيني وترضيه؟ (4).

وهناك ملحق مستقل ينطوي على تفصيلات في السِيَر الذاتية لكل المساهمين في هذا الكتاب التذكاري الشامل عن نزار، وهو أكبر وسام من بين الأوسمة التي علّقها التاريخ على صدره.

وقد أتاح لي عملي لسنوات في دار سعاد الصباح أن أقرأ معظم ما صدر عن الدار، وأهمها محتويات الكتب التذكارية، والنادرة في تاريخ الطباعة والنشر.

وقد عشت كقارئ في جوار الكتب بأنواعها لأكثر من 60 سنة، وأشهد أن الوصاية على هذه الكتب التذكارية لم تكن تُعطى إلا لأهل الخبرة و"الكار" الذين تستعين بهم "الدار".

فعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد تولّى د. محمد جابر الأنصاري الإشراف على الكتاب التذكاري المتعلق بالشاعر البحريني إبراهيم العريّض، والأنصاري هو المثقف البحريني الكبير والمعروف، وأنا الذي كنت أستقبله في الكويت، حين كان يأتي لمتابعة إنجاز الكتاب. وحين وصفت كتاب "نزار قباني.. شاعر لكل الأجيال" بأنه أكبر وسام ناله قباني، فذلك لأنه نموذج الكتاب الأكمل والأمثل من جنسه، ولأنني أعرف المشقات والصعوبات الإجرائية والمالية التي اكتنفت إخراجه.

■ ما كُتب عن نزار قباني هو أكبر وسام ناله.. بسبب مشقّات الكتابة والإجراءات

كلمة أخيرة وخاتمة

من المعروف أن بعض قصائد قباني المغناة، كانت لظروف معيّنة عامة، أو لأسباب يقترحها المطرب أو المُلحّن، خصوصاً منهم محمد عبدالوهاب أو عبدالحليم حافظ، تحتاج إلى تعديل أو تبديل، فكان الأمر يقتضي التشاور مع الشاعر ليقوم بنفسه بما هو مطلوب.

ومن المعروف أيضاً أن أشهر الذين غنّوا وأنشدوا قصائده، هم: أم كلثوم، وعبدالحليم، وفيروز، ونجاة الصغيرة، وكاظم الساهر، وفايزة أحمد، وماجدة الرومي، وطلال مداح، ومحمد عبده، وأصالة نصري، ولطيفة التونسية، وعاصي الحلّاني، وخالد الشيخ، وإلهام مدفعي، وغادة رجب، ومحمد حسن، وربما غيرهم (5).

وقد لحّن بعض هؤلاء قصائده، وكذلك الأخوان رحباني، ويذكر اليوتيوبر عبدالرحمن طاحون في تحليله لقصيدة قارئة الفنجان، أن الموسيقار الكبير محمد الموجي احتاج إلى سنتين لتلحينها (6). الموجي الذي لحن النشيد الوطني "يا أغلى اسم في

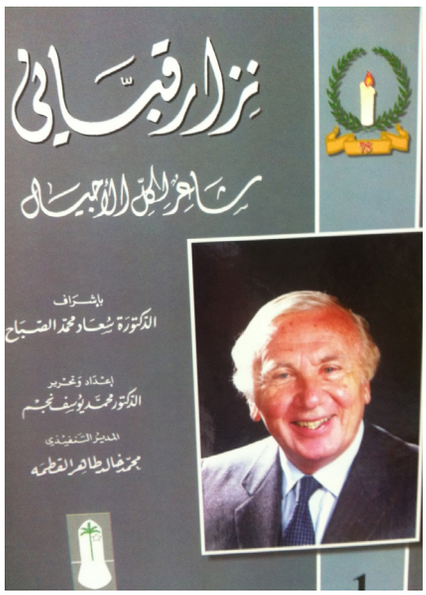

الوجود" خلال وقت قصير جداً عام 1956، بيده العود وفي الأخرى سماعة الهاتف، والفرقة التي ستنشد تنتظر على خط الهاتف الآخر في الإذاعة، والطائرات الصهيونية تقصف مصر، احتاج لسنتين ليكتمل إبداع الثلاثة، قباني والموجي وحليم، في تقديم واحدة من أجمل القصائد المغنّاة!

هذا يعني أن نزار يستحق كل الألقاب التي ألقيت عليه، ولا ضرورة لتعدادها لكثرتها، ولأن الباب لا يزال مفتوحاً لإضافة ألقاب جديدة أخرى محتملة، ومنها أنني أصفه شخصياً، باعتداد، بـ "فريد زمانه".

ولأن العالم الرقمي يزحف ليستولي على مساحات معرفية تشير إلى دلالات واضحة، يكفي أن يدخل المرء إلى محرّك البحث "غوغل"، ويسجل اسم نزار قباني ليكتشف العدد الهائل بالملايين للمدخلات العائدة لاسمه، وهذا يؤكد الطيف الواسع لشعبيته، ليس عند النساء فحسب، كما يُشاع، بل لكل طبقات القراء، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً، وبإجماع لم يحظ به شاعر آخر.

يبقى أن الشاعر الشهير أحمد فؤاد نجم اعترف قبل وفاته (2013)، في حوار طويل مع المذيعة صفاء أبوالسعود، حين سألته عن حال الأغنية العربية، أجاب بحُكم قيمة سلبية للأغنية العربية، واستثنى أغاني كاظم الساهر لقصائد نزار قباني من هذا الحُكم، لجلال كلماته وروعتها.

* طبيب وناقد سوري

****

الهوامش:

1 - محمد إسماعيل محمد اللباني، الحس الثوري في شعر نزار قباني، دار سعاد الصباح، ط. أولى 2000. (ص37 - 38).
2 - الكتاب التذكاري "نزار قباني.. شاعر لكل الأجيال"، المجلد الأول، (ص 7/ 8).
3 - المرجع السابق، (ص9).
4 - المرجع السابق، (ص 1085).
5 - أيمن السلمان. https://www.youtube.com/watch?v=jGrNah0vkDI
6 - عبدالرحمن طاحون https://www.youtube.com/watch?v=hOyUQX7eLwo&t=303s

ثقافة الإصلاح في قصص الأطفال

قراءة في قصة «فريج ضيم»

بتول أحمد خميس *

يزخر تراث أدب الطفل بحكايات ذات دلالة سياسية، مثل حكايات "كليلة ودمنة"، التي ترجمها لـ "العربية" عبدالله بن المقفع، و"حكايات أيسوب"، حيث ضمَّ الكتابان الأمثال والحِكَم ومغامراتٍ ناقدةً الحياةَ الاجتماعية، وداعية إلى الإصلاح الاجتماعي.

ولتفادي السخط والنقد، قصَّت الأحداثَ بأسلوب هزلي على لسان الحيوانات؛ مما أدى إلى استمرار سردها وترجمتها وإعادة صياغتها لتناسب مختلف الأعمار والأجيال.

وقد أحدث التغيّر المتسارع في أنظمة المجتمعات والتوجهات الفكرية الحديثة انشغالَ كُتّاب أدب الطفل عن الوعي المجتمعي وثقافة إصلاح قضايا الفساد، بالرغم من تعدُّد نوافذ الإعلام المؤثرة على ثقافة الطفل واتساع معارفه وتعايشه مع المواقف المختلفة كالسياسية والاقتصادية داخل المجتمع، لتأتي الكاتبة الكويتية لطيفة بطّي وتعيد نهجَ قصص الإصلاح السياسي بنص ممتع بعنوان "فريج ضيم"، رسوم هناء أحمد، وإصدار سيدان عام 2022.

يسرد النصُّ أحداثًا مؤسفة تَطولُ أهلَ "فريج ضيم" نتاجَ منافسة غير شريفة بين الجارتين زوغة وصوغة؛ بذلت كلٌّ منهما الجهدَ للتفوق على الأخرى في بيع الحليب لأهل الفريج، ليتفاقم جشعُ زوغة وطمعُها، فيتجاوز حدودَ الجارة، ويطول خداعُها استغلالها أهلَ الفريج كافة؛ مما تسبّب في أضرار مادية، وصحية، وبيئية لسكان الفريج، وتناقلت الصحف العالمية الأخبارَ لتتدخل هيئة الأمم المتحدة باستعجال حل القضية.

ولتعدد قضايا القصة وأهدافها، تطلَّب النصُّ التحررَ من التقليدية والنمطية بخلْق نهْج مبتكر دافع للسخط، قريب من لغة الطفل وبيئته، لذلك لجأت الكاتبة لنسج القصة بأسلوب باهر جامعةً عدةَ مناهج كتابية مختلفة، ومتلاعبة بعناصر القصة (الزمان، المكان، الشخوص)، دامجة بين الماضي والحاضر، وموجدةً لغة حوارية ونصيّة متشابكة، مستندةً إلى فكاهة الرسوم والإخراج. وبدا النصُّ مفعمًا بالرسائل الظاهرية والمبطنة.

وقد عكس الصراع بين شخصيتَي القصة (زوغة وصوغة) قضايا مجتمعية ذات أهمية، منها:

- القضايا الاقتصادية، كالديون وسرقة المال العام.
- القضايا السياسية، الانتخابات والوعود الكاذبة.
- القضايا الاجتماعية، الواسطة وإهمال أصحاب الخبرة والعلم، وقضية البدون.
- قضايا الإعلام، وتأثيره على ثقافة المجتمع والذوق العام.
- القضايا البيئية، كالتلوث، وثقب طبقة الأوزون.

ولتشعُّب القضايا ومساسها المباشر بالمجتمع وجبَ على الكاتبة الحذق والمهارة والتلون في تبيان الفكرة والنص، فكل قضية تؤثر على شريحة مجتمعية، ومن هنا تتجلّى روعة ازدواجية العمق الفكري وبساطة النص؛ لتقدّم كتابًا يحترم عقلَ الطفل، ويخاطبه من عدة زوايا تعدّ كلٌّ منها نافذةً يطلُّ بها القارئ على موضوعات القصة، وتعد تلك النوافذ سرَّ تكامل العمل وتميزه، حيث قسَّمت القراءةُ التحليلية التالية نجاحَ العمل لأربعة عوامل رئيسة، هي:

أولاً: الأصالة والحداثة (ازدواجية الماضي والحاضر)

فقد أحيا قلمُ الكاتبة الحكايات الشعبية بإعادة صياغتها، مع الحفاظ على العناصر الأساسية للقصة، أو بالجمع بين أصالة القصة والتغيّرات المتسارعة والمستحدَثة في المجتمع، وأتقنت بطّي توظيفَ الشخصيات التراثية بصورة مبتكرة وشائقة، دامجةً بين الواقع والخيال، لتنفرد بسياق قصصي ذي بصمة تراثية حضارية كوميدية تفاجئ القارئ بتطوّر الأحداث وتصاعدها بانسيابية وتشويق مستمر، موجدةً لغة مشتركة بين ماضي الأجداد وحاضر الأبناء، لتنبثق جمالياتُ النص في موارد عدة نذكر منها ما يلي:

1 - انطلقت الحكاية من نوع القصص الممتدة التراثية، حيث يعتمد هذا النوع على توالي الأحداث وترتيبها، فحدثٌ يعتمد على سابقه، ومهنة تعوّل على أخرى. فتكامل الحياة قائم على تعاون الأفراد وحاجتهم لبعضهم، هذا المعنى للتكامل يحقق العيشَ الكريم للأفراد، والاستقرارَ النفسي والاجتماعي والمالي من جهة، ويبين الترتيبَ المنطقي والتسلسلَ الطبيعي لحياة البشرية من جهة أخرى، والذي تجلّى في القصة بحصاد المزارع وبيع البرسيم لمربّي الماشية لإطعام الأبقار وإنتاج الحليب لبيعه في السوق من قبل الباعة. وبذلك وظّفت الكاتبة بذكاء العباراتِ البسيطةَ المدعَّمةَ بصور توضيحية ليتحقق أمران؛ الأول: تعزيز مفهوم استمرار الحياة الطبيعية بتعاون العمل وتكامله بين أفراد المجتمع،

والثاني: بيان الأثر المترتب على صفتي الجشع والطمع وانعكاسهما السلبي على طبيعة الحياة البشرية وهدمها مصالحَ الأفراد، وهي رسالة ذكية تمكّن القارئ الصغير من قياس الفارق بين الامتداد الطبيعي للحياة وبين العمل القائم على الجشع والتعدي على حقوق الآخرين، حيث تجلّى الأثر بوضوح للقارئ بعد سيطرة زوغة وهيمنتها على سوق بيع الحليب، وأثر ذلك في إهلاك العاملين في القصة، ليمثّل الحدثُ ذاته مرحلة انتقالية من المنافسة غير الشريفة إلى السيطرة على أهالي الفريج وثرواتهم والتحكم بسوق العمل.

2 - من جماليات النص اشتقاق الكلمات من اللهجة الكويتية، وإن كان للفظها أصلٌ في اللغة العربية، واستلهام الكاتبة الكلمات الكويتية من صحاح اللغة العربية حقّق قراءات عدة، أحدها بُني على المعنى الظاهر للهجة العامية؛ لتضفي روحًا تراثية قرّبت القارئ إلى النص، فاستشعر أهمية الأحداث وأثرَها على المجتمع، والآخر المعنى الباطني لأصل الكلمة باللغة العربية؛ لتبيّن الكاتبة عمقَ اللغة العربية وأهمية الحفاظ عليها وتحقق خطابًا مزدوجًا يُسَهّل إيصالَ الفكرة وفهمَ المعنى. وقد وُفّقت الكاتبةُ في اختيار الألفاظ الكويتية؛ بدءًا من العنوان إلى أسماء الشخصيات والمرشحين وآخرين، ونذكر منها ما يلي:

● "فريج ضيم" عنوان يسلّط الضوءَ مباشرةً على مكان أحداث القصة، حيث يتضمن مضمونه الكثيرَ من الإيحاءات المثقلة بالهموم والألم؛ فالفريج في اللهجة الكويتية هو الحي الذي يسكنه الناس، وفي اللغة "الفرقة" طائفة من الناس، لتجمع كلمةُ فريج المعنيين؛ المكان والأفراد (المتمثل بشخصيات القصة)، حيث يتشارك أهلها بالمصالح والأهداف والقضايا، فضلًا عن دفء العلاقة بينهم والتقارب والجيرة. وصْفُ الفريج وأهله بالضيم، الذي يُعرَف في اللغة بالظلم والتعب، هو تعبير صريح عن الحالة النفسية والاجتماعية والمادية السيئة لأهل الفريج التي أوجدَت جراءَ جشع زوغة وطغيانها، ليشير العنوان المبنيُّ على اللهجة واللغة إلى رؤى متعددة؛ منها خضب القصة بطابع التراثية، كما تعرّف الصغار باللهجة الكويتية وتعزّز مفرداتها، وأخيرًا تشويق القارئ لمعرفة حكاية الفريج واستثارة فضوله لمعرفة علّة نعته بالضيم.

● هناك ثراءٌ لغوي للكاتبة نسج رباطًا وثيقًا بين اللهجة واللغة، ليقدمَ قراءةً متناغمة بين ظاهر المعنى وباطنه، تجلّى في استنباط الأسماء من اللهجة الكويتية، كاسمَي زوغة وصوغة، وبالرغم من انعدام استخدام الاسمين في الحياة المجتمعية، فإن في الأمر دلالات تكشف سماتٍ داخليةً حُجبت بسلوك خارجي، وبانتقاء حاذق للأسماء حفزت القارئ لاكتشاف خبايا الرموز لكل من زوغة وصوغة.

"صوغة" من العادات الاجتماعية الجميلة، وهي هدايا المسافرين التي يأتون بها من السفر، أما "زوغة" فهي تعبير باللهجة الكويتية للإيحاء بجمال الشيء وروعته. وقد اشتركت الكلمتان بجمال الشيء ظاهريًا، واختلفتا في المعنى العام لأصل الكلمة لغويًا، ليكتشفَ القارئ فهمًا أدقَّ وأعمقَ لكلا الشخصيتين. ففي المعاجم العربية "صوغة" اسم من الفعل صاغ الشيءَ، أي صنعه، ويقال صاغه الله أي خلقه، ولا يكون خَلقُ الله إلا جميلًا، أما لفظ "صوغة" في اللغة فيعني "سكبة"، ويُستخدَم في صياغة الذهب وتشكيله وصناعته، ليتضمن الاسمُ لهجةً ولغةً المعنى الجمالي، ويتجلى المعنى للقارئ في جمال أصالة عمل صوغة واجتهادها لصياغة الأفكار لإنتاج مشروع لكسب المال الحلال.

وتمثّل زوغة جمالاً ظاهريا أكد المعنى المتعارَف عليه باللهجة، وعُزِّز بالرسوم التوضيحية وبلباقة الحديث والإقناع اللذين تمتلكهما، ذلك القناع المزيف كشفه فعل اسم زوغة، الذي جاء من زاغ أي مالَ وانحرفَ كما انحرفت شخصيتُها عن جادة الصواب، لتتعدّى الشرعية والقانون وتصبو لكسب مادي بالمراوغة والخداع.

● يتّسع الثراء اللغوي لبطّي، لتستلهم أسماءَ مرشحي انتخابات الفريج من الأمثال الشعبية، التي تُعدُّ حكمةَ الشعوب، ليُوظف بحنكة للإشارة المجازية عن بعض القضايا والمشكلات المجتمعية من جهة، وخذلان أصحاب الرئاسة من جهة أخرى.

ومن خلالها تصبو الكاتبة لأحد أهداف القصة بأسلوب هزلي مقتضَب يقلُّ به الكلام ويتّسع المعنى، لتبعث رسالتين؛ إحداهما لأهل الفريج لتوقظ الوعيَ والإدراكَ للتمييز بين الصالح والطالح، والأخرى للقارئ ليستنبط الحكمة من المثل، وعلّة الاستخدام المغاير للأمثال لتنوير بصيرته، بذلك لا يقتصر توظيف الأمثال كأسماء، بل هي سمة للمرشح وما ستؤول إليه البلادُ وثروتها بتولّي المناصب.

ولتوضيح المقصد، نذكر بعضَ ما ورد في نص القصة ملازمًا لما رمَزَ من الصفات وتبيان المعنى المقابل له.

"من صادها بن معشى عيالها"، المقصد الاستغلال مقابل العدل.

"حاميها بن حراميها"، المقصد سرقة المال العام مقابل الأمانة.

"خشمك خشمك بن لو كان عوي"، المقصد الواسطة مقابل المصلحة العامة.

"عط الخباز خبزك لو أكل نصّه"، المقصد اختيار الكفاءة والشخص المناسب للعمل.

"اللي ما يعرف الصقر بن يشويه"، المقصد الجهل مقابل العلم.

"ليحبّتك عيني بن ما ضامك الدهر"، المقصد التحيّز مقابل الإنصاف.

● ويستمر النص بتضمين كلمات تراثية كالأكلات الشعبية، مثل الدرابيل، وتوظيف كلمة "التجوري" للإشارة إلى الكنز المدفون في أرض الفريج، والقارئ للنص بإمعان يعي المقصد من التجوري باعتباره ثروة البلد ومصدر الدخل الأول (النفط)، وعُلّل ذلك بأمرين؛ الأول لا حاجة من دفن التجوري لصلابته وثقل وزنه، والثاني: للإشارة الرمزية للنفط كثروة موجودة في باطن الأرض، كما في دفن التجوري دلالة فنية مُستلهَمة من الحكايات الشعبية، وفيه تعزيز للروح التراثية للقصة.

ثانيًا: الخطابات النصية المتعددة

تعددت الخطابات وتنوعت ما بين النص السردي، الإعلانات، أخبار الجرائد والصحف، الهاشتاق، والأفكار الداخلية المُعلَنة للشخصيات، وكان لتعدد الخطابات أهداف منها: إيضاح الفكرة بإيجاز ومن دون إسهاب، لتفادي ملل القارئ وتشويشه، توجيه غير مباشر لانتباه القارئ لبعض الرسائل المبطنة وعلل أسباب الأحداث، توعية القارئ الصغير للتأثير المباشر للإعلام على ذوق القارئ واهتماماته وأفكاره.

ثالثًا: لغة الرسم والخطاب الجسدي

تكامل النص برسوم فكاهية ساخرة مع وضوح بساطة الحياة وتقارب العناصر البيئية، كالمنازل، والملابس، مع بيئة المجتمع الكويتي، عبّرت عنها ريشة الفنانة بصدق مشاعر شخصيات القصة وآمالهم وآلامهم، وبدت المشاعرُ جليّة من تعبيرات الوجه، والحواس الجسدية (كالحركات، والمؤثرات المصاحِبة للشخصيات، والجيوب الفارغة المتدلّية للخارج، وتنكيس الحقائب النسائية للدلالة على الأزمة المادية لأهالي الفريج).

رابعًا: أثر الخطاب الإعلامي على الذوق العام

للخطاب الإعلامي قدرة على التغلغل في أعماق المجتمعات، وتغيير الثقافة، وتوجيه الذوق العام كما يشاء أصحابُ الرأي، وكان الصوت الإعلامي عاليًا ذا تأثير مباشر على ذائقة وثقافة أهل الفريج، وبدا بوضوح من خلال الترويج للبضائع، ومنافسة البضائع الأجنبية للمنتج المحلي، والضرر السلبي المباشر على التاجر المحلي، والترويج لمنتجات رديئة بتكلفة مالية باهظة، وأخيرًا تأميل أهل الفريج برؤية متطورة وحديثة دون تغيير واقعي ملموس.

ووجهت الكاتبة خطابًا إعلاميًا مغايرًا للقارئ بتوخّي الحذر والوعي واليقظة الذهنية عند تلقّي الرسائل الإعلامية بمختلف وسائطها.

انتهت حكاية فريج ضيم، ولا يزال مصيرها غامضًا، فقد غُيّبت عن أهل الفريج لكثرة المتاعب والمشكلات، كمصير الرجل العالق في الهواء يبقى وحيدًا يعوم في السماء كالبالون الطائر، وهي ذات دلالة عميقة للإخفاق في معالجة بعض القضايا المجتمعية.

يُعد "فريج ضيم" إنتاجًا قصصيًا فريدًا يقدّم رؤى مختلفة لثقافة الطفل، ومنحى فكريًا منبثقًا من بيئة المجتمع، وهذا أمر يُحسَب للكاتبة بقدرتها على قراءة القضايا المجتمعية وسردها بأبعاد تراثية حضارية كوميدية تتناسب وعمر الطفل.

* باحثة في أدب الطفل

الموسيقى والغناء في الكويت

الأغنية الكويتية تستمد جذورها من فنون العصور الأولى للحضارة العربية

حجاج سلامة *

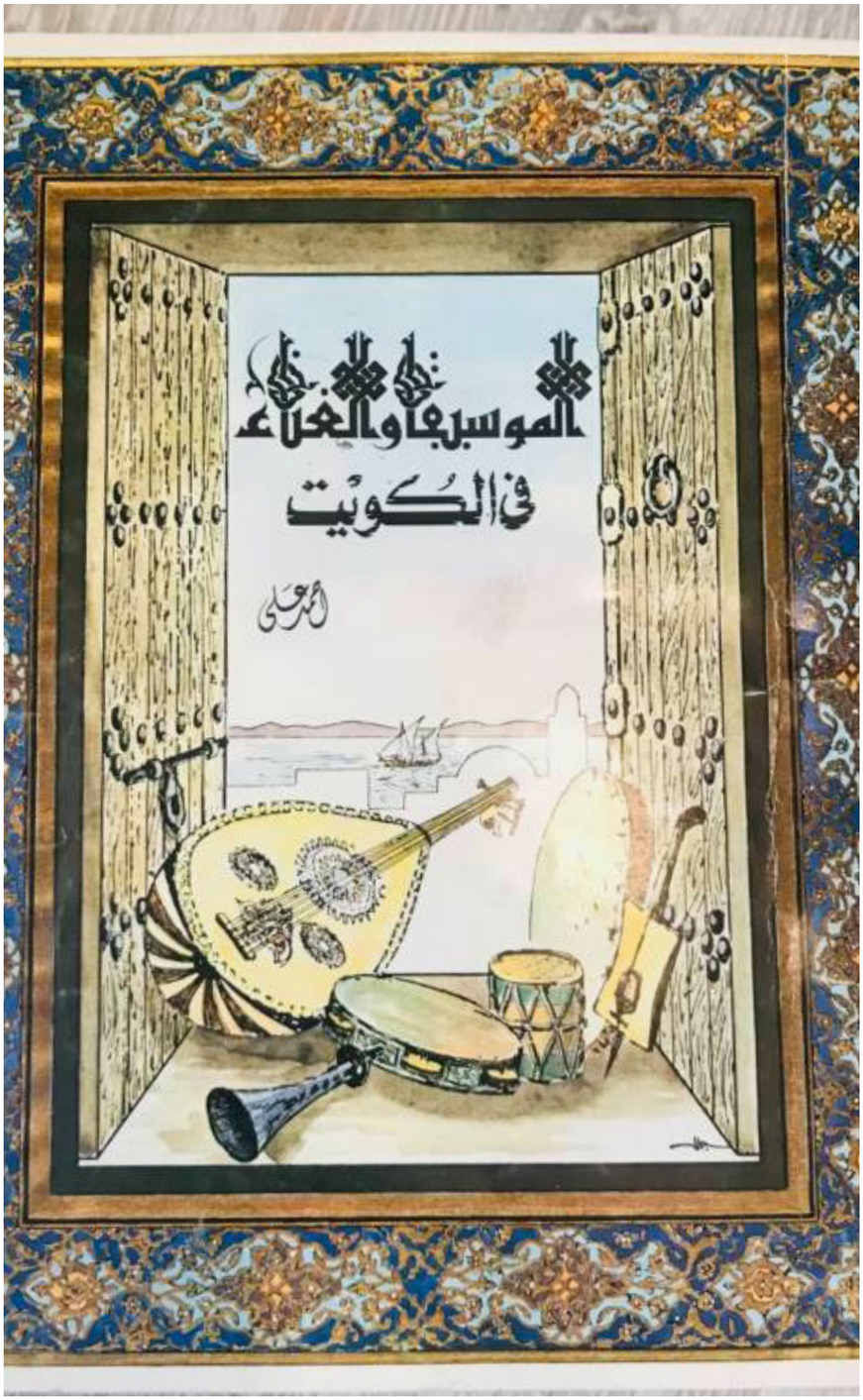

على الرغم من مُضي أكثر من أربعة عقود على صدور كتاب "الموسيقى والغناء في الكويت"، لمؤلفه أحمد علي، فإن ذلك الكتاب القيّم بقي محتفظاً بأهميته حتى اليوم، وذلك لما احتواه من موضوعات ساعدت الباحثين والمهتمين على الإلمام بالأغنية الكويتية وقوالبها الموسيقية وقواعدها وإيقاعاتها.

كما أسهم الكتاب - الذي قدّم له الشاعر والمؤرخ أحمد البشر الرومي، وصدرت طبعته الأولى عن شركة الربيعان للنشر والتوزيع، عام -1980 في سد نقص بالمكتبة الكويتية بشكل خاص، والمكتبة الموسيقية العربية بوجه عام.

ولعل ما جعل الكتاب يحظى باهتمام كبير وقت صدوره حتى اليوم، هو أن مؤلفه أحمد علي، الذي وفد للكويت قادماً من مصر عام 1959، وأسس مكتبة التراث الموسيقي بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، هو أحد عباقرة علم الموسيقى.

أحب مؤلف الكتاب الأغنية الكويتية، التي بدأ مشواره معها مع افتتاح مبنى الإذاعة الكويتية، حيث مارسها ودوّنها موسيقيا، وتفهّم قوالبها الموسيقية وإيقاعاتها وقواعدها تفهّماً تاماً.

وقد لمس المؤلف، من خلال عمله في حفظ التراث الموسيقي وتحقيقه، مدى تشوق العاملين في حقول التراث الموسيقى من عرب وغير عرب لمعرفة ما في الفنون الموسيقية والغنائية الكويتية والخليجية بصفة عامة من أسرار، والإلمام العلمي بما تنتهجه هذه الفنون من مناهج.

وساعد حُب علي للأغنية الكويتية في أن يغوص بأعماقها، ويستمتع مع الكويتيين بما يستمتعون به، ويحسّ معهم بما يشعرون به من نشوة ولذّة وطرب، ويدوّن موسيقاها، ويكتشف قوانين قوالبها التلحينية، وقواعد إيقاعاتها الكثيرة، ويقرأ كتب الأقدمين الموسيقية، مما ساعده على معرفة حلول للكثير مما كان يظنه ألغازا وأحاجي.

وبفضل حبّه للأغنية الكويتية، وعبر مقارنته بين القوالب الموسيقية والإيقاعات العربية القديمة، وقوالب الأغنية الكويتية وإيقاعاتها، تفتحت معه أبواب ربما لا يزال

بعضها مغلقا بالنسبة لكثيرين من الفنانين وعلماء الموسيقى.

ووفق مقدمة كتاب "الموسيقى والغناء في الكويت"، فإن مؤلفه رأى أنه كان محظوظا بحبه للفن الموسيقي والغنائي الكويتي، حيث أتاح له ذلك الحب الكشف عن كنوز من الألحان والإيقاعات العربية القديمة لا تزال تعيش بيننا.

ويتأكد لنا ذلك بوضوح من خلال صفحات هذا الكتاب، الذي لا يفوّت مؤلفه أن يشيد بالدور الذي قام به الرومي بتسجيله للألحان الكويتية القديمة بصوت الفنان المرحوم يوسف البكر، وبذلك حفظ الكثير من الأصوات التي يتناولها الكتاب.

الطريق لفهم الموسيقى الكويتية

ومن خلال مطالعتنا لصفحات الكتاب، نتعرف على أن الممارسة الموسيقية تكون على نمطين: الأول نمط الموسيقا الآلية الذي يشتمل على المعزوفات الموسيقية البحتة، والثاني نمط الغناء الذي يشمل الغناء الفردي والجماعي، بمصاحبة الآلات الموسيقية أو دونها، وتتفاوت الشعوب في استعمال هذين النمطين وفي تفضيل أحدهما على الآخر.

ووفق الكتاب، فإن العرب عموما . ومنهم الكويتيون . يفضّلون النمط الثاني (الغنائي) فيخصونه دون غيره بالرعاية والتقدير والتشجيع والإعجاب، ولذلك، فإن الطريق إلى فهم الفن الموسيقى الكويتي والعربي عموما، أو دراسته والتعرف عليه، إنما يكون عن طريق الأغنية، وذلك من خلال البحث في موسيقاها وطريقة أدائها وإيقاعاتها ونصوصها، وغير ذلك من خصائصها ومكوناتها.

والأغاني الكويتية - والمقصود بها هنا الأغاني التقليدية أو الأصيلة - تشترك في أهم خصائصها اللحنية والإيقاعية مثيلاتها من أغاني بلدان الخليج العربي، إلا أنها تختلف عن الأغاني العربية المعاصرة أو الحديثة - حتى الكويتية منها . وإن كنّا نجد في الوقت الحاضر كثيراً من الأغاني الكويتية تشبه إلى حد كبير الأغاني العربية المعاصرة، كأن نجد مثلا اللحن الكويتي الحديث الذي ينهج نهج القصيدة الطويلة ذات المقدمات الموسيقية والفواصل الموسيقية الطويلة، أو نجد الأغنية الخفيفة التي تردد المجاميع الغنائية (الكورس) لحن مطلعها، أو ما يسمى "المذهب"، والتي ينفرد المطرب بغناء بقية أبياتها، أو ما تسمى "الكوبليهات".

لكنّ مؤلف الكويت يؤكد أن ما نلمسه من مظاهر التشابه بين الأغنية الكويتية المعاصرة والأغاني العربية الأخرى ما هو إلا صور حديثة لا تمتّ إلى الأغنية الكويتية الأصيلة بأي صلة. وأن الأغنية الكويتية الأصيلة شيء آخر، وذلك لأنها - أي الأغنية الكويتية - تستمد جذورها وقواعدها ومناهجها التلحينية وقوالبها الغنائية من فنون العصور الأولى للحضارة العربية.

ويلفت مؤلف الكتاب إلى أنه قبل أن تذاع الأغنية الكويتية التقليدية، وتنتشر بأنماطها الموسيقية وقوالبها الغنائية وإيقاعاتها عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، فيقول "كنّا نظن أن ألحان الحضارة العربية التي مارسها الفارابي والموصلي والكندي ومعبد وزلزل وزرياب، وغيرهم من صانعي الحضارة الموسيقية الأولى، قد اندثرت، وكنّا نعتقد أنها ذهبت إلى غير رجعة، لكن ظهور الأغنية الكويتية وذيوعها كشف لنا عن كنز عظيم ورائع من هذه الألحان التراثية، فاذا بها لا تزال تعيش بيننا نتداولها حتى يومنا هذا".

ثروة موسيقية رائعة

ويدلنا كتاب "الموسيقى والغناء في الكويت" على أن التربة الكويتية احتفظت بثروة رائعة من ألحان التراث الموسيقي العربي، مع ما احتفظت به من عروبة اللغة ومن الدين والعادات والتقاليد الموروثة من جيل إلى جيل.

ويتساءل مؤلف الكتاب: كيف أمكن لهذه الألحان والأصوات أن تظل وتبقى عبر كل هذه القرون؟

ويجبنا عن سؤاله بأنه تبيّن له من خلال معايشته لهذه الألحان الأصيلة القيمة، ومن المقارنة بينها وبين ما ورد في كتب الأقدمين من شروح ومواصفات، أنها متطابقة في كثير من نواحيها تطابقاً تاماً، وأن عنصر المفاجأة الذي قابله كما سيقابل كل قارئ كان منصبّاً وبإلحاح على هذا السؤال وسؤال آخر يقول: كيف تحتفظ الكويت ودول الخليج وحدها دون سائر البلدان العربية بهذه الأنماط بهذا الوضوح والتطابق، مع الأنماط التي ذكرتها الكتب الموسيقية القديمة، مع أن بداهة النظرة الأولى تقول إن الدول التي كانت ذات بريق حضاري أكثر كانت أولى بالاحتفاظ بهذه الأنماط؛ مثل العراق ومصر والشام؟

وأجاب بأنه ربما يكون السبب في ذلك هو بُعد الكويت والخليج عن تيارات الحضارات المستوردة مع موجات الاحتلال الصريح التي أصابت بعض الدول، كالعراق ومصر وغيرها من البلدان العربية.

ويستحضر مؤلف الكتاب سطوراً مما سمعه من محاضرة للدكتور عبدالعزيز مطر في جامعة الكويت، عن اللهجة الكويتية وأصالة عروبة ألفاظها الدارجة وتواترها عبر الأجيال، وبقاء معانيها العربية وكلماتها الأصيلة من جيل إلى جيل، ما يمكن أن نطبّقه على الأغنية الكويتية الأصيلة المتمثلة في ألحان الأصوات والفنون الغنائية الكويتية المتوارثة، وتقدّم تعليلا منطقيا لبقاء هذه الألحان واستمرارها.

وينقل المؤلف عن د. مطر قوله عن اللهجة الكويتية: "صدقوني حين أقول لكم وأنا أتحدث عن علم من فوق منبر العلم، أن اللهجات التي لم تتجاوز شبه الجزيرة العربية، ومنها لهجة الكويت، وأن لهجات أهل البوادي في العالم العربي لا تزال تحفل بالكثير من أسرار العربية الفصحى، وما زال في صحرائها واحات تظللها نضارة لغة القرآن الكريم، وما زال في بحارها مغاصات يخرج منها اللؤلؤ والمرجان، رغم ما يحسبه الوافدون إلى هذه المناطق أنها:

ملاعب جنّة لو سار فيها
سليمان لسار بترجمان

نعم يحسبونها كذلك، أتدرون لماذا؟ للسبب الذي أشيد بها من أجله، وهو احتفاظها بذخيرة ضخمة من الكلمات والصيغ التي يتلقاها جيل عن جيل منذ منشأ العربية حتى اليوم".

ووفقا لنصوص الكتاب "فإن هذا القول ينطبق تماماً على الألحان الكويتية التقليدية الأصيلة المتوارثة، فهذه الألحان والإيقاعات العربية الحديثة والمعاصرة ما هي في الحقيقة إلا ألحان من التراث الموسيقي العربي الأصيل الذي بقي عبر القرون ملازماً للشعب العربي الكويتي، مع ما لازمه من خصائص الطبع والطباع واللغة والدين".

ويُشدد الكتاب على أن كل قالب غنائي وكل إيقاع وكل نغمة تمارسها أو تحتويها الأغنية الكويتية التقليدية المتوارثة، نجد لها ذكرا وشرحا في كتاب من كتب الموسيقا العربية القديمة، وبشكل وافٍ وواضح.

بقي أن نشير إلى أن كتاب الموسيقى والغناء في الكويت، تناول بتفصيل دقيق، الأغاني المدنية، التي تشمل مجموعة القوالب الغنائية التي تطلق عليها الاصطلاحات التالية: الصوت العربي أو "السداسي"، والصوت الشامي، أو "الرباعي"، والاستماع، والخيّالي والختام، والفن النجدي، والفن الحساوي، والخماري، والسامري، واليماني.

وكذلك الأغاني البحرية، وتشمل هذه الأغاني مجموعة الفنون والقوالب الغنائية والإيقاعية التي منها ما يُطلق عليه مصطلحات: "السانكني، والشبيثي، ولمة الجيب، والفن البحري، والحدادي، والمجيلسي، والعرضة البحرية، وغيرها من المصطلحات الفنية الموسيقية والإيقاعية الخاصة بأعمال البحارة على سفن الغوص على اللؤلؤ وعلى السفن التجارية.

ويستعرض الكتاب - كذلك - أنماط الأغاني البدوية، وتشمل القوالب الغنائية البدوية التي يُطلق عليها أهل البادية المصطلحات الفنية التالية: المسحوب، والهجيني، والأصخري، والهلالي، ومشتقات هذه القوالب وفروعها الكثيرة.

* كاتب وإعلامي من مصر

صورة الديك في تراثنا العربي الإسلامي والشعبي

د. عبدالمنعم مجاور*

للديك في الموروث الديني والأدبي والشعبي حضور وافر؛ إذ إنّ الصورة الذهنية عنه تقود إلى التفاؤل، والإيجابية، والاستبشار بالخير، ففي الحديث الشريف، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ نُهَاقَ الحَمِيرِ فَتَعَوَّذُوا بالله مِنَ الشَّيْطانِ، فإنَّها رأتْ شَيْطاناً، وَإِذَا سَمِعْتُمْ صِياحَ الدّيَكَةِ، فاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فإنَّها رأتْ مَلَكاً».

ولعلّ وضع صياح الديك مقابلًا لنهيق الحمار قد أكسب الديك مزيدًا من التقبّل والارتياح من قِبل السامع على وجه الحقيقة، أو حتى في المنام؛ لأن صورة الديك في المنام تدلّ إجمالًا على الكبرياء والطموح والقوة، كما تدلّ على العز والشموخ والفخر والاعتزاز بالنفس، بل إن الديك قد يكون رمزًا للعالِم أو الفقيه. والديك الأليف في المنام يدلّ على الودود، الحنون، الطيب من الرجال، كما قد يدلّ على النجاح والرزق الوفير.

ولا تبعد الصورة الذهنية الشعبية ولا تنفكُّ عن ذلك الموروث الديني؛ إذ كثيرًا ما يتم إسقاط ما هو ديني على ما هو شعبي، بل إنّ ذلك هو الغالب الشائع، ومن الأمثال الشعبية المرتبطة بصورة الديك: «الديك الفصيح في البيضة يصيح»، وهو مَثل شعبي يُضرَب لمن تَظهر مواهبه مبكّرًا، وتأبى مزاياه إلا ظهورًا، ومنها أيضًا «عِش يومًا ديكًا، ولا تكن يومًا دجاجة»، وهو مَثَل يحمل في طيّاته النخوة والشهامة، وينفّر من الضَّعة والذِّلة، والاستكانة والرضا بالدون.

وبيضة الدّيك، مثَلٌ يضرب لليتيم من الأمور؛ كأنْ يكون إنجازًا واحدًا يعيش المرء على ذِكراه، أو نجاحًا فرداً يظل الإنسان يتغنى به دون أن يواصل المسير. وبيت الديك هو القنّ لا الجُحْر، كما قد يتبادر إلى الذهن، قال ابن سيده: الجُحْرُ كل شيء تَحْتَفِرُه الهَوامُّ والسباع لأنفسها، والجمع أَجْحارٌ وجِحَرَةٌ.

وإذا كان العرب قد جعلوا للحيوانات والطيور كُنىً، من واقع شغفهم بها؛ فكنّواعن الثعلب بأبي الحصين، وجعلوا «أبا جعدة» كنية للذئب. وأبا فراس للأسد، وأبا الأثقال للبغل، وأبا أيوب للجمل، وأبا خداش للنسر، فإنهم قد جعلوا أبا حماد وأبا نبهان وأبا منذر، كُنيً للديك، وهي كُنى تحمل من خلال منطوقها دلالات الفأل الحسن والأمور الإيجابية المستحسنة.

وعلى صعيد حضور الديك في الشعر والأدب نجد أبا الفرج الأصفهاني يرثي ديكًا له، ويخاطبه بكنيته (أبا النذير) لحبّه له، وحزنه على فراقه. وهي مرثية طويلة، تعُدُّ من جيّد ما قيل في مراثي الحيوان ومن مختار الشعر، عذبة الألفاظ، بديعة المعاني، مطرّدة الأجزاء، منسقة القوافي كما قال عنها ابن شاكر الكتبي في تصديره لها، يقول فيها الأصفهاني:

لهفي عليك أبا النَّذيرِ لو انَّه
دفعُ المنايا عنك لهفُ شفيقِ

للتشكيلي المصري عفت حسني

أبكي إذا أبصرتُ ربعك موحشاً
بتَحَنُّنٍ وتَأَسُّفٍ وشهيقِ
ويَزيدني جزعاً لفقدك صادحٌ
في منزلٍ داني المحلِّ لصيقِ
صبراً لفقدك لا قِلىً لك، بل كما
صبرَ الأسيرُ لشدةٍ ومضيقِ

ولابن زُريق البغدادي - صاحب المرثية أو الفراقية

الشهيرة - قصيدةٌ طويلة في رثاء ديك، بلغت أبياتُها أربعين بيتًا، ذكرها صلاح الدين الصَّفَدي في كتاب «الوافي بالوفيات»، واللافت أنها على قافية قصيدة أبي الفرج وعلى نفس رَوِيِّها، يقول فيها:

خطبٌ طرقتُ بِهِ أَمرَ طَروق
فَظَّ الْحُلُول عَليّ غير شفيقِ
فَكَأَنَّمَا نُوَبُ الزَّمَانِ مُحِيطَةٌ
بِي راصداتٍ لي بِكُلِّ طَرِيقِ
ذهبتْ بِكُلِّ مُوَافقٍ ومرافقٍ
ومناسبٍ ومُصاحِبٍ وصديقِ
حَتَّى بديكٍ كنتُ آلَفُ قُربِهِ
حُلْوِ الشَّمَائِل فِي الدّيوك رَشِيقِ
أَلْقى عَلَيْهِ الدَّهْر مِنْهُ كلكلاً
يفني الورى ويُشِتُّ كلَّ فَرِيقِ
أربيبَ منزِلِنا ونَشْوَ حجورنا
وغَذِيَّ أَيْدِينَا نِدَاءَ مَشُوقِ
لهفي عَلَيْك أَبَا النذير لَو انه
دفعَ المَنايا عَنْك لهفُ مشوقِ

والملاحظ على قصيدتَي أبي الفرج وابن زريق أنّ نبرة الحزن فيهما عالية، وأنهما قد انطلقتا من الشكوى من الدنيا ونوائبها بصفة عامة، إلى نكبة صاحبيهما حتى في ديكيهما، وتيمة الوصف فيهما غالبة، وتحتاج القصيدتان إلى وقفة تحليلية متأنية، ودراسة فنية مستفيضة، ليس مكانها هذه الإطلالة السريعة.

ولا تعجب من قصيدتَي ابن زريق - بكائيته المشهورة، ورثاء الديك - وشساعة البون المُتَوَّهم- بين موضوعيهما ودوافعهما، واختلاف العاطفة فيهما؛ فالمَلَكة الحقيقية للشاعر هي التي تمكنّه من أن يجيد في الهزل كما أجاد من قبلُ في الجد؛ فإن كان ابن زُريق قد رثى في «الأولى» نفسه فأحزنَ وأبكى، فإنه قد رثى في «الثانية» ديكًا فأمتعَ وأعجب!

وإذا ما وصلنا إلى الشعر في العصر الحديث، وجدنا قصيدتين مشهورتين؛ «الديك البطل» لبرهان الدين العبّوشي، وهي قصيدة عمودية، و«الديك» لنزار قباني، وهي من شعر التفعيلة، وللديك في القصيدتين شأن كبير، ومعالجة مختلفة عن سابقتيهما؛ إذ أدى الحوار في القصيدتين دورًا كبيرًا على خلاف قصيدتَي أبي الفرج وابن زريق، اللتين غلب عليهما الوصف الذي ربما يكون قد استجلبه داعي الرثاء، موضوعا لهما.

أمَّا قصيدة الديك البطل فبطلها حيٌ بمدلول الكلمة البيولوجي والفني كذلك، وقد بنى العبوشي قصيدته على بطولة ذاك الديك الرمز الذي يأبى الضيم، ويذود عن الحياض؛ لذا لا تعجب أن يستهل الشاعر قصيدته بالحلف - غير حانث - بحياة ديكه، وببطولته؛ إذ لم يجد الشاعر أمام عينيه بطلا سواه، يقول العبوشي:

حلَفتُ بديكِنا وحلفتُ حقًا
بأنّي لم أجد بطلا سواه
يهاجمني وينقرني ويرمي
بمخلبه وتجرحني مُداه
ويقفز كالهِزَبْرِ سخرتُ منه
ويبذل روحَه يَحمي حِماه
وقلتُ لهُ: علام تنالُ منّي؟
فقال: اخرس لكلِّ أذىً دَواه
أتحبسُنا وتأكلُنا وتَعدو
على الأقفاصِ تَنهبُ ما تراه
ولو كُنّا سِباعا لم تنلنا
فإنَّ السبعَ تحميه يداه
وإنّي ثُرتُ أدفعُ عن كياني
وفيمَ عجبتَ إذ أفَنَى فِداه
فقلتُ: لعلَّ هذا الديكَ أذكى
من الزعماءِ إذ يفدي لواه

يكتسب ديك العبُّوشي هنا إلى جانب البطولة، الحميّةَ والكرامة، والإحساس بالمسؤولية تجاه نفسه، وتجاه مجتمعه؛ لذا تجده في حواره مع الشاعر يوظف ضمير الجمع عند حديثه عن الحقوق المغتصَبة: «تحبسنا - تأكلنا - كُنّا- تنلنا»، وإذا جاء للمغرم والتحمل، والفدائية وظّف ضمائر المفرد: «ثرت - أدفع - أفنى»، فهو هنا يمثّل بحقٍّ دور «الراعي» ومسؤوليته، «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»، وهو راعٍ أمين، يتفانى في خدمة رعيّته، ولو كان كُلفتَها حياتُه، وكلها صفات غُلِّفَتْ برمز شفيف، وتوظيف لفنّي الكناية والتعريض، على مبدأ «إليكِ أعني واسمعي يا جارة»، فعلى مثل هذا الديك، فليكن كل راعٍ مسؤول.

ولقَد حَرَصَ الشاعر - منذ الوهلة الأولى - على أن يرسمَ لديكه في ذهن المتلقي صورة حسية حركية قافزة، فترتسم في مخيلته صورة هذا الديك الشرس الذي يحمي الحمى؛ فبالرغم من أنه ينتمي إلى «الدواجن»، فإنه لم يُستأنس أو لم «يُدَجَّن» بمصطلحات التحليل السياسي الحديثة! وقد اختار له الشاعر من الصفات الحركية أشدّها وأعنفها - في حدود ما يملك الديك من أدوات - فجعله يهاجم، وينقر، ويرمي بمخلبه، ويجرح بمُداه، بل ويبذل روحه دفاعًا عن حِماه، ويكفي ديك العبوشي فخرا أنه قد استحال أسدًا، هِزَبْرًا! إلى حدّ أن تمنينا أن لو استحال رعاتُنا ديوكًا كديك العبوشي فثاروا، ودافعوا وأفنوا كما ثار ديك العبوشي، ودافعَ وأفنى!

وعلى الضفة الأخرى، يقابلنا ديك نزار القباني في قصيدة من شعر التفعيلة، يقول فيها:

في حارتنا
ديكٌ ساديٌّ سفاح
ينتفُ ريش دجاجِ الحارةِ، كُلَّ صباح
في حارتنا
ديكٌ يصرخ عند الفجر
كشمشون الجبار
يُطلق لحيتَه الحمراء
ويقمعنا «ليل نهار»
يخطب فينا
يُنشد فينا
يجرح فينا
فهو الواحد وهو الجبار
في حارتنا
ثمّة ديك عدواني، فاشيستي،
نازيُّ الأفكار
في حارتنا
ديكٌ عصبيٌ مجنون
يخطب يوما كالحَجَّاج
ويمشي زهواً كالمأمون
ويصرخ من مئذنة الجامع
يا سبحان يا سبحان
فأنا الدولة، والقانون
حين الحاكمُ سمع القصة
أصدر أمرا للسياف بذبح الديك

يستهل ديك نزار المشهد في مطلع الأبيات، فيبدو ديكًا عنيفًا، «سفّاحًا»، وهو عدواني ساديٌّ يؤذي الآخرين ويعذبهم، ويلتذّ بذلك، فهو رمز لكل طاغية مستبد، ومن ثمّ يستدعي نزار تاريخ الجبابرة، فيستجلِب من جراب المستبدين شمشمون وما نُسِج حوله من أساطير، وخوارق القوة، ثم ينتقل به الشاعر إلى «الفاشستية»، ليستدعي القارئ بالضرورة موسليني، ودكتاتوريته ليسقطها على الواقع من خلال ذلك الديك النازي الأفكار؛ ليحضر هتلر فيكمل صورة الطغيان؛ حيث اختصار الكل في الأنا! واستدعاء مقولة: «الغاية عنده تبرر الوسيلة».

هذا، ولم يغِب التاريخ الإسلامي عن ذهن نزار ومُخيّلته، بل لقد استدعاه؛ حيث الحجاج بصوته الجهوري وخطبه القوية الرنانة، والمأمون وزهوه وهو في أُبَّهة مُلكِه.. وإذا كان ديك العبوشي قد مرَّ سالمًا، بالرغم من استعداده للفناء دفاعا عن «كيانه»:

وإنّي ثُرتُ أدفعُ عن كياني
وفيمَ عجبتَ إذ أفَنَى فِداه

فإن نزار قد اختار لديكه نهاية مأساوية وهي «الذَبح»، ولكنه ليس ذبحا بسَكين عادية ككل الديوك، وإنّما هو ذبح بسيف السيّاف؛ كي لا تسوّل له نفسه الصياح! وحتى تظل صورة السيف المشهر حاضرة في الأذهان تخويفًا، وصورة «السيّاف» القاسي ماثلةً أمام العيون ترويعًا!

***

تلك إطلالة سريعة على توظيف الديك في تراثنا العربي الإسلامي، والشعبي، وقد لاحظنا الاختلاف بين المعالجة التراثية له من حيث الوصف، والحزن على الفقد، وأن الدنيا لا تبقى على حال، كما كان عند أبي الفرج وابن زُريق، وبين المعالجة الحديثة التي تعمد إلى الرمز والإسقاط السياسي، الذي يتماهى مع مستجدات العصر الحديث؛ ليبقى للديك في كل الأحوال حضوره، وليظلّ صوتُه مسموعًا حقيقةً مع أذان المؤذن فجر كل يوم جديد، ومسموعًا استدعاء في المخيلة واستحضاراً، بما للديك من رصيدٍ إيجابي كبير في الذهنية العربية في تراثنا القديم، وواقعنا المعاصر.

* باحث أكاديمي مصري

حوار مع الروائي البرتغالي ديفيد ماتشادو

لا سبب للخوف من الكتب!

ترجمة: رفقة أومزدي - المغرب

ديفيد ماتشادو كاتب متعدد الأوجه؛ في أدب الطفل، يكتب مستعينا بذكريات طفولته، لكن بخيال خصب أيضا وبحس مرح يداعب الغموض، ما يأسر القراء مع كلّ مؤلَّف جديد، كمثال «القرش في حوض الاستحمام» والذي أعيد نشره مرّات ومرّات، وفي أدب اليافعين من خلال مؤلفات ك «ملوك البحر»، الذي يزاوج الواقع بالخيال ببراعة.

وبكتابته للبالغين؛ يعكس أحوالنا الأكثر عمقا كما في عمله الأصيل «مؤشر السعادة المتوسط»، والذي حاز به على جائزة الاتحاد الأوروبي للأدب، كشف في مقابلة مع موقع wookacontece عن أن الكتابة منحته حياة أكثر غنى وامتلاء مما كان يتخيل، وترك رسالة خاصة لكل من يحمل حلم تأليف كتاب يوما ما: تجاوز الخوف؛ هو الخطوة الأولى.

- بدأت الكتابة مبكرا؟

نعم، خلقت مبكرا جدا قصصا في عقلي، لعبت القيثارة، وبدأت مشاهدة الأفلام وقراءة الأدب تأثرا بوالدي، في البداية، كنت أرغب في امتهان السينما، لكن وجدت الأمر صعبا، كوني لم لأجد حولي أشخاصا لهم ارتباط بمهن إبداعية، ولم أصادف طريقا يوصلني إلى ذلك.

- أ كانت هناك لحظة حاسمة قررت فيها التحول لكاتب، بما أنك جئت من عالم الاقتصاد؟

لا، تم ذلك بشكل تدريجي تماما، أكملت دراستي واشتغلت في مجال الاقتصاد مدة ثلاث سنوات تقريبا، لكني رغبت في القيام بشيء أكثر إبداعا، على الرغم من أن الأمر بدا لي مخاطرة وصعب المنال.

أصبحت عاطلا عن العمل بعد ذلك، لديّ وقت، فبدأت بالكتابة، فجأة، وجدتني أكتب من 7 إلى 10 ساعات يوميّا، طوال أيام الأسبوع، دون هدف معيّن.

- لكن بكثير من الحماس!

نعم، ببساطة لأني أحب القيام بهذا العمل، أن أستيقظ صباحا – حتى أني لا أتناول الفطور – أجلس أمام الحاسوب للكتابة، وأظل هناك لساعات وساعات، لم يحدث معي هذا مع أي شيء آخر من قبل، بعد بضعة أشهر انتهيت إلى أنه لا معنى للعودة للعمل في مجال الاقتصاد، فبدأت بتحضير نفسي على العمل على كتابتي ونبرة صوتي، مشوار كنت أعلم أنه سيكون طويلا؛ استغرق سنتين حتى تمكنت من نشر كتابي الأول.

- ما الذي قدمه لك الأدب؟

كنت أظن أن حياتي ككاتب كانت ستكون أقل بكثير مما هي عليه اليوم، كان لي اعتقاد بأن عملي ككاتب، سيجعلني ألازم البيت طيلة الأيام من أجل كتابة كتاب واحد، ولن أغادره إلا ليوم واحد في السنة من أجل تقديمه، ثم أعود لتأليف الكتاب التالي. لكن ليس هكذا على الإطلاق: أسافر كثيرا، على تواصل كبير مع القراء خاصة بسبب ما أكتبه للأطفال، وأقدم كتبي في جميع أنحاء البلد وخارجه، أعمل مع كثير من الأشخاص المبدعين؛ رساميين، مخرجي مسرح، ممثلين وأحيانا موسيقيين.. حياتي شيء مختلف تماما وأفضل، بسبب الكتابة.

- من هم الكتاب الذين ألهموك أو أثروا فيك أكثر؟

لا أجد خجلا في القول بأني تأثرت بكتاب آخرين، كما وأتأثر بالمحادثات التي أجريها مع الأصدقاء، أو بالأخبار.. في البدايات، كنت مأخوذا جدا بأدب أمريكا الجنوبية؛ غابرييل غارسيا ماركيز، ماريو فارغاس يوسا وماريو بينيديتي الذي هو أكثر واقعية، ومع ذلك، شعرت بالحاجة إلى التقرب أكثر من الأدب المعاصر الذي يعكس ما نعيشه الآن.

- والكتاب البرتغاليين؟

من بين الكتاب البرتغاليين المعاصرين، ساراماغو شكّل لي مرجعا كبيرا لرؤيته الأدبية الواسعة، اقرأ باستمرار للجيل الجديد، لجواو توردو، وأنا بيسوا تكتب لليافعين وهي استثنائية.

- كيف ترى مشهد الأدب الخاص بالطفل واليافعين في البرتغال؟

وضع أدب الطفل واليافعين في البرتغال يثير قلقي الكبير، وأرى أنه في تراجع، صحيح أنه في السنوات 10 إلى 15 الماضية ظهر العديد من الفنانين الجيّدين، لكن من ناحية أخرى، لم يظهر كتاب (دون سن 40) في أدب الطفل، كذلك في أدب اليافعين لا يوجد.

الأكبر سنًا أو الأكثر شعبية هم أنفسهم منذ عقدين أو ثلاثة، مثل أنا ماريا ماغاليش، أليس فييرا، أنطونيو موتا، جوزيه فانها، ولويزا دوكلا سواريش الذين يقومون بعمل استثنائي، لكن يقلقني ما سيكون عليه الأمر حين سيتوقف هؤلاء عن النشر، لأنه ليس لدينا من يعوض مكانهم.

- مع الخبرة، أصبح تأليف الكتب أسهل بالنسبة لك؟

من جانب، نعم، لأني تعلمت تجنب بعض الأخطاء، ومن آخر، أجدني أكثر نقدا لما أكتبه، طريقة تفكيري ورؤيتي للعالم ما تزال مشابهة لما كانت عليه قبل 10 سنوات، وهنا أحيانا يصعب عدم تكرار الشخصيات والمواقف، لكن المهم في اعتقادي هو اكتشاف صوتي الخاص، محاولة القيام بأشياء لم أقم بها من قبل، مختلفة عمّا قام به كتاب آخرون، ومن أجل هذا أيضا أحب القفز من جنس أدبي إلى آخر، في محاولة لعمل أشياء جديدة.

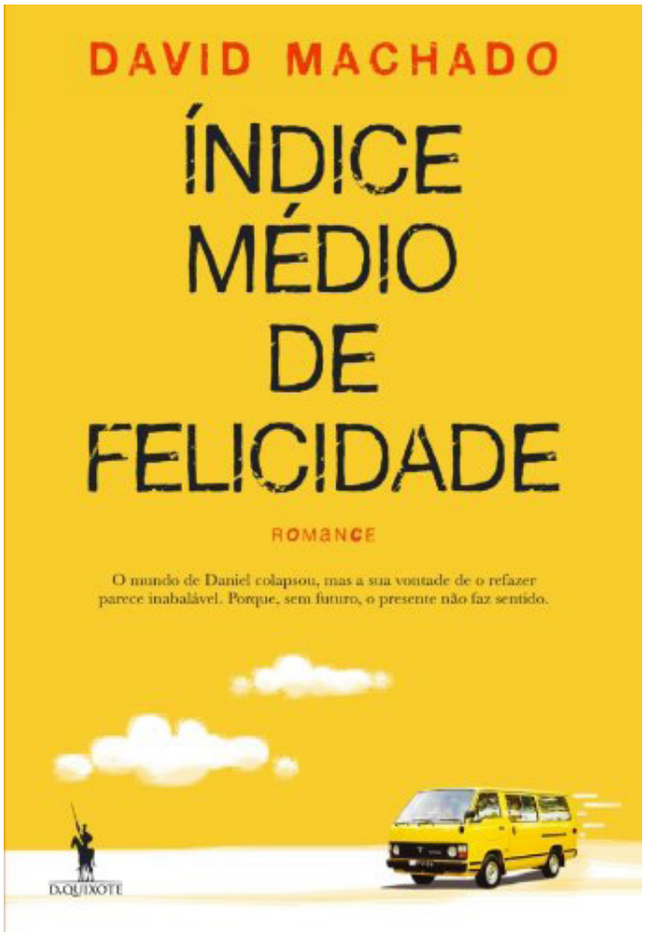

- ما الذي يأخذ وقتا أكبر في عملية الكتابة؟

من عادتي أخذ وقت أكثر من أجل التفكير قبل الكتابة، مرحلة التخطيط قد تستغرق منّي سنة: التفكير في كيفية تركيب القصة، تسجيل الملاحظات، تجربة أنماط السرد.. خلال الجائحة، بدأت الكتابة بشكل أكثر اندفاعا، دون أن أعرف على الأقل ما سيحدثه ذلك، قعر الظلام ذاك الذي كنّا فيه، وجهلنا بمعرفة كيف سنخرج منه، كبح خوفي لأني أدركت أن باستطاعتي القيام بذلك.

- هل حدث أن وجدت ملامح قصتك التي تخيّلتها في البداية، قد تغيرت بعد أن وضعتها للمراجعة عند الناشر؟

نعم حصل، ومرّ الأمر جيّدا، لأنه حتّى عندما أضع مخططا مفصلا، أعلم أنه مجرد أساس أولي لبدء العمل بأمان أكبر، قد يحتاج الأمر فقط لتحويل العناصر من جانب إلى آخر، لذلك عادة ما تكون النسخة الأخير مختلفة جدًا عن تلك التي كُتبت في البداية.

- ما الرسالة التي تود تركها لقرّائك الأصغر سنًا؟

رسالة لهم تتعلق بالقراءة، في بداياتي كقارئ كنت محظوظا بتوفّري على كتب عديدة بالمنزل، وكنّا نذهب باستمرار لدور الكتب والمكتبات العامة، وكان ذلك مهما جدا كي أعي أمرين: الأول هو أن الكتب لا تتحدد في شكل واحد؛ بل هناك تنوعا كبيرا بخصوص الموضوعات والعصور، مكتوبة بأصوات متعددة، والذي يهم أكثر هو أن نتحصّل الكتب المناسبة لنا.

الثاني هو أن الكتب ليست مخيفة للدرجة التي كنّا نراها عليها عندما كنّا أطفالا، هناك كتب صعبة لكن ليس جميعها.

لاحقا ككاتب، أدركت أن الكتاب في الحقيقة، ما هو إلا فعل قام به شخص ما في العالم، تدريجيا، بدأت أفقد الخوف من تجربة الكتابة أيضا، وأنا مقتنع بأن أي شخص يمكنه التغلب على هذا الخوف، وإذا أراد، أن يصبح كاتبا.

* حاورته: فيرا دانتاش
لموقع: wookacontece الأدبي

شهداء المجد*

للشاعر الكويتي الراحل يعقوب عبدالعزيز الرشيد - يرحمه الله - قصائد عدة، يعبّر فيها عن نزعته الإنسانية، وانتماءاته القومية، يدخل في أعماق المأساة ويطالع المشهد مناجياً مستنهضاً الهمم لما يحدث في الوطن العربي، والوجع الفلسطيني جاء صادحاً في كثير من نصوصه.

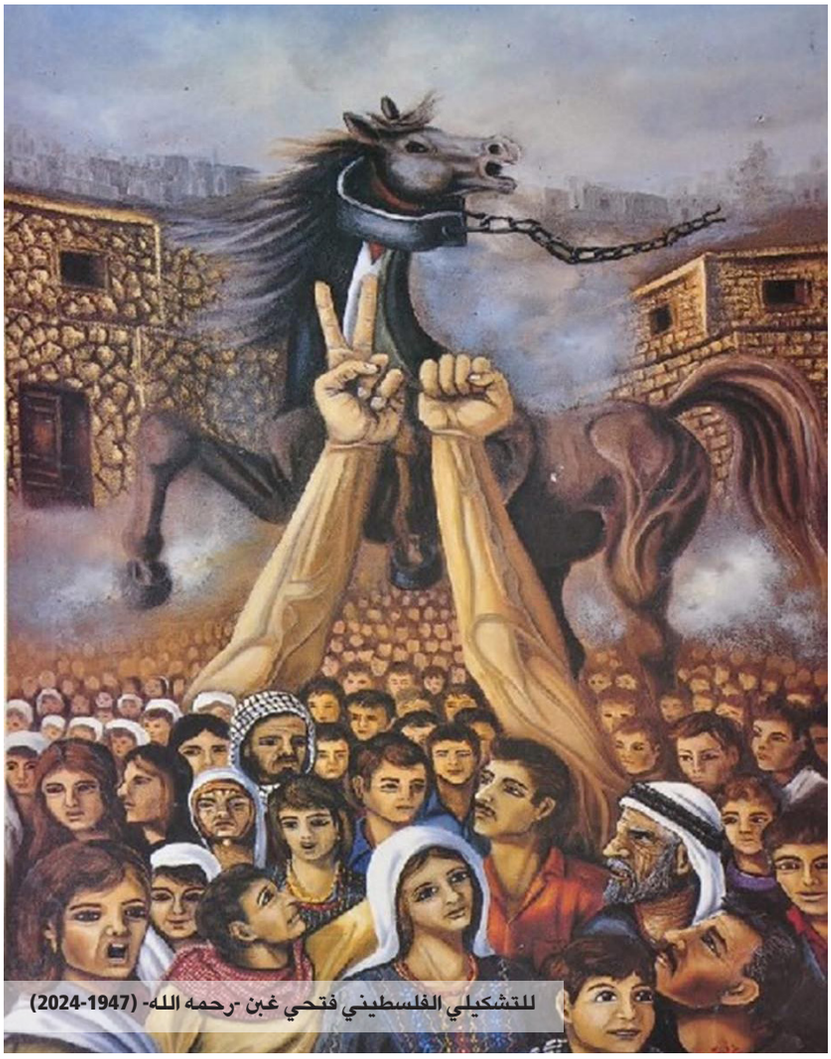

للتشكيلي الفلسطيني فتحي غبن -رحمه الله- (1947-2024)

وقَـــفَ المجـــدُ ونـــادى
أيـــن أنـتـــم يـا جُـنـــودي؟
طـــال شـــوقـي وحـنـيـنـي
لِـعَـريـنـــي، لِأُســـودي
فـفـلـسـطـيـــن تُـنـــادي
أحْـكَـــم الـبـاغـي قـيـــودي
قـد نـفـضـتـم بـعـض عـاري
ونَـكـصـــتـم عـن حـــدودي
أخِـــــلافٌ دَبّ فـيـكـم
أم وعـــــود مـن يـهـود؟
فَـرُبـا الـشـيـح تـعـــالـت
فـوقَـهـا شـمـس جُـــدودي

أشـرقَـت مـن عـنـدِ أُسْـــدٍ
جـــدّدت عُـــنـــفَ صُـمـــودي
هـا هـم الأبـطـــال شَـقّـوا
لـلـعُـلا دربَ خـلـــودي
هـمُّـهُـم أن يـركُـــزوا
فـــوق ذرا المـجـدِ بُـنـــودي
ضَـمّـدوا جـرحـي وأجـروا
دمَـهُـم مـلءَ وريـــدي
كُـلُّـهـم حـولـي شـهـيـدٌ
يـتـغـنّـــى بـشـهـيـدِ

*كتبها في بيروت 10 مايو 1974م